همسة صباح

وقصص أخري

أحمد سيد أحمد

همسة صباح و قصص أخري
أحمد سيد أحمد
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : إسلام البلاط
رقم ايداع: 2017/2617
ترقيم دولي: 978-977-6594-10-4

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

همسة صباح

وقصص أخري

أحمد سيد أحمد

دار فصلة للنشر و التوزيع

إهداء

إلى ...فيروز ابنتي الحبيبة
إلى ....إيـاد ابني العزيز

بابا

مشاكل عادية

كانت تسير بخطوات مطمئنة توحي لمن يراها أنها اعتادت السير في هذا الطريق طوال أيام حياتها وسنوات عمرها التي تجاوزت الأربعين.. لم يظهر على قسماتها أي شيء غير عادي بالرغم مما يتسارع في داخلها من أفكار وذكريات.
أخذت تسترجع الشريط الذي لا تعرف له أول من آخر فمن قطار الزواج الذي مر أمامها بدون أن يحفل بوجودها ولا بشبابها الذابل إلى مطبات العمل التي أصبحت لا تحتمل بعد زيارة المدام منى الأخيرة للمركز وإنتهاء بمرض والدتها الذي أضاف عبئًا جديدًا إلى أعبائها .
أحست بالعبرات تكاد تخرج من مآقيها بالرغم من محاولاتها المميتة في التشبث بها فزادت من سرعة مشيتها، وهي تنظر عن يمينها وشمالها وكأنما تتأكد أن أحدًا لا يراها على هذه الحال.
كان ما حدث في هذا اليوم أشد وأقسى مما تحتمل، وشعرت أنها بحاجة أن تسترجع الموقف منذ بدايته، حيث كانت تجلس مع الدكتور أشرف في مكتبه الخاص في المركز الطبي، وهو أمر عادي يحدث كثيرًا فهي المساعد الأول له في عمله من هيئة التمريض، ولذلك فقد كانت غريبة تلك النظرة التي رمتها بها مدام منى، عندما دخلت كعادتها بدون أن تطرق الباب أو تستأذن من حنان السكرتيرة، والذي زاد من غرابة الأمر بالنسبة لها ذلك الرجل الغريب الذي كان معها، والذي قام إليه الدكتور أشرف ليسلم عليه ويرحب به، ونادرًا ما كان يفعل ذلك حتى مع أقرب أصدقاءه وبعد كلمات بسيطة بين مدام منى وهذا الرجل لم تفهم معناها قالت:
- -اخرجي وسيبينا شوية مع بعض يا نهال- ..... لم تصدق أذنيها وربما لازالت

لا تصدقها حتى الآن، أنا أطرد من مكتبي، والدكتور أشرف لا يتكلم ولا يدافع عني، بل ينظر إلى ما في يده من أوراق وكأن الأمر لا يعنيه ! كيف ذلك ؟... كيف حدث ما حدث؟... ثم الأعجب من هذا الأمر ما حدث بعد ذلك فبعد أن ظل الثلاثة داخل المكتب لما يقارب الساعة خرجوا سويًا وقال لها الدكتور أشرف في اقتضاب وهو يسير خلف زوجته.

- -ابقى عدي عليا الساعة ٧ يا نهال عشان عاوزك-

ولم ينتظر حتى يعرف ردها وهل هذا الميعاد مناسب لها أم لا ..

عندما بلغت العمارة التي يسكن بها الدكتور أشرف، حاولت تصنع ابتسامة تداري بها ما بداخلها وأخذت تصعد السلالم وهي تعد نفسها لأسوأ الاحتمالات، وهو أن يخبرها الدكتور أشرف بأنها لم يعد لها مكان في المركز، وأن عليها أن تبحث عن رزقها في مكان آخر، أو تخبرها زوجته بهذا الأمر عوضًا عن ذلك، وعلى هذا الأساس لم يكن مستغربًا عليها أن ينفتح الباب عن وجه مدام منى فذلك أمر كانت تتوقعه، فهي تعرف الأخلاق الرفيعة التي يتمتع بها الدكتور أشرف، والتي ربما تمنعه من إخبارها بشيء مثل ذلك، ولكن الذي أثار دهشتها واستغرابها بل وحيرتها هذه الابتسامة المرحبة التي تظهر على وجه مدام منى، والتي تناقض تمامًا ما كان يعلو وجهها من اقتضاب وعبوس في الصباح، والذي زاد من هذه الدهشة أنها عندما دلفت إلى المسكن لم يكن الدكتور أشرف موجود، وإنما الذي كان موجود هذا الشخص الغريب الذي كان برفقة مدام منى في الصباح، وبالطبع فقد أثار ذلك في نفسها مئات الظنون، واشتعل رأسها بمئات الهواجس، لدرجة أنها أحست أن ذلك الأمر هو مجرد حلم لابد أن ينتهي سريعًا على خير .. وبكل بساطة قالت مدام منى تقدمها للشخص الواقف لاستقبالها

- -نهال أشطر ممرضة في المركز- .... ثم التفتت إليها وقالت

- -حمدي أخويا لسه راجع من الكويت الأسبوع اللي فات-...

ووضح أمامها الأمر عند هذا الحد، فالأستاذ حمدي يرغب في أن يتزوج، وليس هناك من هي أكثر دراية بهذه الأمور منها، وهو يطلب منها أن تبحث له عن

عروس .. كادت أن تحدثه عن نفسها إلا أن كبرياءها قد منعها من ذلك، فأنهت الحديث سريعًا، ونزلت من عند المدام منى تحاول أن تداري دموع حسرتها على ذلك الزمن الذي يأبى الاعتراف بها كأنثى من حقها أن تكون عروس و أن يكون لها أسرة كغيرها .. لم تجد أمامها إلا أن تسير في ذلك الشارع المظلم لتطلق العنان لأحاسيسها ومشاعرها لتنطلق كما تشاء بعيدًا عن أعين الناس.
مسحت دمعة فرت من عينها حينما أحست بظهور بعض الأشخاص في الشارع واستكملت طريقها إلى مسكنها .. إلى وحدتها.

الأستاذ فؤاد

عندما بدأت فصول وأحداث هذه القصة لم يكن أحد يتوقع بحال من الأحوال أن تنتهي حيث انتهت، وأن يقوم الأستاذ فؤاد – وما أدراكم ما الأستاذ فؤاد - بهذه الأعمال العظيمة والمهام الجليلة التي قام بها .. وحتى لا يأخذنا الكلام فيجب أن نتعرف أولًا على الأستاذ فؤاد.

يعمل الأستاذ فؤاد مدرسًا لمادة الرياضيات بإحدى مدارس الزقازيق، وقد تربى وحيدًا لوالدين بذلا كل ما في وسعيهما لتنشئته تنشئة صالحة.

استغلت والدته الإجازة الصيفية، وأخبرته بوجود بنت الحلال، وأقنعته بالذهاب معها إلى حيث تسكن الآنسة عفاف .. وحتى يخرج الأستاذ فؤاد من مطب الزواج الذي لم يكن يريده فقد اتفق مع عفاف وأهلها على أن مهمته في المنزل هي إحضار النقود فقط، وليس له أي دخل بشراء مستلزمات أو إعداد مهمات، كل المطلوب منه هو أن يأتي بالنقود أما كيف ومن أين فهذا شأنه هو .. والحق يقال أن الأستاذ فؤاد لم يكن أصلًا يفعل أي شيء لنفسه فقد وجد خادمًا رجلًا في الزقازيق يعد له كل شيء، فيغسل له ثيابه ويقوم بكيها، ويعد له غذاءه وشرابه، وينظم مواعيده ولا يتركه إلا مساء كل يوم.

وتم الزواج على ما اتفق عليه الأستاذ فؤاد مع أهل زوجته، الذين نظروا إلى الموضوع من ناحية أخرى، حيث قالوا من الذي يرفض أن يزوج ابنته لرجل يحضر لها كل ما تهفو إليه نفسها، فكل ما يمكن أن تطلبه أي امرأة يمكن شراءه لها بالمال.

وعاش الزوجان في أسعد حال وأهنأه بالرغم من أن ما كابدته عفاف في حياتها الزوجية يفوق أضعاف المتفق عليه، فالأستاذ فؤاد - وهكذا يجب أن يناديه

الناس بمن فيهم زوجته - لا يحضر لنفسه كوب الماء، ولا ينظف حذاء، ولا يكوي قميص، وهكذا وجدت عفاف نفسها مضطرة للقيام بكل ذلك، حتى تمضي الحياة ولأنها فتاة صالحة من أسرة طيبة فقد كانت نعم الزوجة.

وحتى لا ننسى فإن الجدير بالذكر أن الأستاذ فؤاد وحرمه كانا يعيشان في الزقازيق بصفة مستمرة بعيدًا عن أهليهما، ذلك أن الأستاذ فؤاد قد طلب في بداية عمله أن يتم نقله إلى الزقازيق، وذلك بعيدًا عن زحام القاهرة، وكثرة مدرسيها وبعد دراسة وافية لسوق العمل في الزقازيق ومدى إقبال الطلاب على الدروس الخصوصية فيها .

وبالفعل فقد كان الأستاذ فؤاد من أشهر المدرسين، وكان وقته لا يتسع إطلاقًا لأي شيء مع كثرة مواعيد الدروس، التي تبقيه في منزله منذ أن ينتهي يومه الدراسي وحتى يخلد إلى النوم، لذلك فقد كان من المتعذر عليه زيارة أهله أو أهل زوجته، حيث أن تلك الدروس كانت قائمة على مدار العام فكان مشغولًا بها أيام الدراسة وأيام الإجازة لمن فاته قطار النجاح .. وطبعًا لم يكن ليسمح لزوجته بأن تتركه وتذهب لزيارة أهلها، فهو لا يستطيع أن يقيم حياته بدونها ولو ليوم واحد، فهي مسئولة عن كل شيء بدءً من إيقاظه في الصباح حتى نومه في المساء، مرورًا بإعداد طعامه وشرابه وتنظيم مواعيد دروسه، إضافة إلى تحمل ما يتحدث به طوال الليل وهو نائم مع الآخرين.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان من المتعذر أن يزوره في بيته أيًا من أهله أو أهل زوجته، فالشقة التي يحيا فيها برغم كبرها وكثرة غرفها لم يكن فيها متسع للزائرين خاصة مع انشغال صاحبها طوال الوقت بعمله وعدم قدرته على استقبال أحد.

ولكن أخيرًا وبعد طول عناء من الإلحاح وافق الأستاذ فؤاد على أن تقوم عفاف بزيارة إلى أهلها، لترى والدها المريض على أن تذهب يوم الخميس عصرًا، وتعود السبت صباحًا قبل استيقاظه من النوم، وذلك باعتبار أن مساء الخميس ليس فيه سوى موعدين سيحاول أن ينتهي منهما على خير، والجمعة به أربعة مواعيد، وسوف يتناول غداؤه في أحد المطاعم.

وبعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام، وأن الجلباب الأبيض الذي يرتديه الأستاذ في صلاة الجمعة - ويظل به إلى أن ينتهي من دروسه - نظيف ومكوي وأن الملابس التي سيرتديها للذهاب إلى المطعم نظيفة وجاهزة للارتداء، وأن المعلبات التي في الثلاجة قد فرغت في الأطباق ووضعت على إحدى الصواني، وأن الخبز معبأ على طاولة المطبخ وكل ما عليه إذا أراد الأكل أن يخرج الصينية من الثلاجة ويضعها على الطاولة ويأكل، كما أن الأحذية قد تم تلميعها كما أن عفاف لن تتأخر عند والدها وسوف تكون بالمنزل يوم السبت قبل السابعة صباحًا حتى توقظ الأستاذ من نومه .. وسافرت عفاف .

وابتدأ الأستاذ في الدرس الأول الذي قدر الله أن ينتهي على خير وأن ينصرف الطلاب غانمين مطمئنين، ثم بدأ طلاب المجموعة الثانية في التوافد والاستعداد للدرس، وما أن بدأ الأستاذ في الشرح حتى انقطعت الكهرباء، وهاج الأستاذ وماج وبدأ يبحث عن كشاف النور – المعلق أمامه – في كل أرجاء البيت بلا فائدة، ولما أعياه البحث اتصل تليفونيًا بزوجته ليسألها عنه، فأخبرته بمكانه وعندما أراد أن يشغله اكتشف أنه غير مشحون فأمسك به بعصبية وقذف به إلى الأرض وصرف الطلاب الذين حجب عنهم الظلام تعبيرات وجهه وشكل ملامحه.

وبعد انصراف الطلاب وجد الأستاذ فؤاد أنه لا يمكنه أن يبقى هكذا في الظلام، كما أن الكشاف من الصعب أن يعمل ثانية بسبب ما أحدثه به، وبالطبع لم يكن يعرف أين تحتفظ زوجته بالشموع .. وحاول الأستاذ فؤاد أن يهدأ أو أن يرتب أفكاره في هذا الأمر الجلل الذي لم يكن يعمل له حساب إلى أن هداه تفكيره إلى الذهاب إلى أحد المحلات وابتياع بعض الشموع والكبريت، وما أن عاد إلى المنزل حتى أضاءت الأنوار مرة أخرى، فقذف الأستاذ بالشموع من يده وهو يلعن الساعة التي وافق فيها على سفر زوجته، ولكن بعد قليل قام بجمع الشموع مرة أخرى خشية أن يتكرر نفس الأمر مرة أخرى، ثم دخل السرير مبكرًا وقام بتشغيل التلفاز الصغير الذي في حجرة نومه، وظل يشاهده إلى أن هدأت نفسه وغلبه النعاس فنام لينتهي أول يوم من أيام سفر زوجته .

ولأنه نام مبكرًا فقد استيقظ مبكرًا، وأخذ يتقلب على السرير في استرخاء وتكاسل إلى أن مل هذا الأمر فقام إلى المطبخ، وأخرج الصينية التي تحمل الطعام من الثلاجة، وجلس يتناول إفطاره وبعد أن انتهى من الإفطار دخل إلى الحمام ووقف تحت الدش ممنيًا نفسه باستحمام هادئ ينتعش به جسده، ويبدأ به يومه وأخذ يستمتع بالمياه وهي تغسل جسده ووضع الصابون على رأسه ووجهه وفجأة انقطعت المياه .. وانتظر ما يقرب من الدقيقتين آملًا أن تعيد المياه سريانها مرة أخرى حتى يستطيع أن يفتح عينيه، ولكن بلا فائدة فأخذ يضرب جدران الحمام بيده ويزفر ويزأر باحثًا عن الدلو الذي تخزن فيه زوجته المياه إلى أن دخل الصابون في عينيه، فأخذ يتأوه ويتألم إلى أن وجد الدلو فأخرج منه كوبًا ملأه بالماء وصبه على رأسه وغسل وجهه، وبالطبع كان الماء باردًا للغاية فزاد ذلك من حنقه وغضبه فتوضأ ثم ألقى بباقي الماء على الأرض وخرج من الحمام ليس عليه من لباس الدنيا سوى المنشفة التي ينشف بها جسده ثم ارتدى جلبابه وعاد إلى المطبخ وقام بتوصيل غلاية المياه إلى الكهرباء، ثم وضع الماء الساخن في أحد الأكواب التي أعدتها زوجته ووضعت بها السكر والشاي ثم قام بشرب الشاي ونزل إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة والعودة لبداية اليوم .
وأثناء عودته من الصلاة مر على بعض الصبية الذين يلعبون الكرة في الشارع، وبدون مقدمات إذا بأحدهم قد ركل الكرة بقوة فأصابت جلباب الأستاذ فؤاد في مقتل وأصابت صاحب الجلباب بالهياج الذي طال الصبية بأسوأ الصفات والنعوت وأصاب آباءهم بأقذر الألقاب والأوصاف.
وعاد الأستاذ فؤاد إلى المنزل سريعًا لتغيير ملابسه، وقبل أن ينتهي من هذا الأمر كان طلاب الدرس الأول قد حضروا وكأنهم منتظرون صعوده بأسفل العقار فارتدى سريعًا الملابس التي أعدتها له زوجته للذهاب إلى المطعم، وجلس ليبدأ أولى جولاته التي شاء الله له أن تنتهي نهاية طيبة وأن تلحق بها المجموعة الثانية وبدأت المجموعة الثالثة وأثناء اندماج الأستاذ في الشرح والتوضيح إذا به يسمع صوت ارتطام بالحمام فصاح بدون وعي – -شوفي فيه إيه في الحمام يا عفاف- ..... ثم استدرك ..... يووووه دا عفاف مش هنا .... فقام من مكانه واتجه

ناحية الحمام ولما وصل إليه وجد أن الحمام قد أغرق بالماء ذلك أن الجيران الساكنين بالشقة التي تعلو شقته قد نسوا صنابير المياه مفتوحة عندما انقطعت المياه ثم سافروا إلى حيث لا يدري .... الأمر الذي أدى إلى غرق شقتهم بالماء وكسر ماسورة الصرف والتي انكسر جزء منها في أعلى حمام الأستاذ فؤاد وترك الأستاذ طلابه في الشقة وصعد سريعًا إلى جيرانه الذين لم يكونوا موجودين أصلًا فعاد مرة أخرى إلى شقته واتجه إلى حمامه محاولًا الوقوف على أحد الكراسي والحيلولة دون هطول المياه إلا أن توازنه قد اختل ووقع وسط المياه وأسبغ الله عليه ستره فلم ير أيًا من الطلاب ما حدث له وإلا لأصبح مثار سخريتهم وسخرية من يعرفون لفترة طويلة.

وتم إلغاء الدرس والدرس الذي يليه واتصل الأستاذ فؤاد بزوجته وأخبرها أن الساعة التي وافق فيها على سفرها كانت ساعة سوداء، وبعد أن هدأت نفسه قليلًا سألها عما يفعل فطلبت منه الاتصال بالسباك وأخبرته أن رقم هاتفه مكتوب في الدفتر الموجود بالمطبخ، وسارع الأستاذ فؤاد ونفذ ما قالته زوجته إلا أن السباك رد عليه في تكاسل بأنه لا يعمل يوم الجمعة، وبالطبع كان له نصيب من سباب الأستاذ فؤاد الذي وجد نفسه مضطرًا إلى التفكير فيما يجب عليه فعله للعبور من هذا المأزق، وبعد عناء شديد هداه تفكيره إلى أن يغلق محبس المياه الخاص بهذا الجار والموجود أسفل العقار .... واستعان بجاره المهندس محمود الذي يسكن الشقة المقابلة لشقته ليرشده إلى هذا المحبس وبعد أن قام بإغلاقه صعد معه المهندس محمود إلى شقته، وكان المهندس محمود هادئ الطباع على عكس الأستاذ فؤاد وبعد قليل من التفكير أخبره بأن يحضر الدلو الذي كانت زوجته تخزن فيه المياه ووضعه أسفل الكسر الموجود في الماسورة فأصبحت المياه تنزل فيه ولا تنسال إلى باقي الحمام فشكره الأستاذ فؤاد وانصرف الرجل إلى شقته.

قام الأستاذ فؤاد بعد ذلك بتغيير ملابسه وأدى صلاته ثم جلس في المطبخ ليتناول بعض الطعام وبعد أن هدأت نفسه واطمئن أن يومه قد انتهى دخل إلى حجرته محاولًا النوم وأثناء استرخاءه على السرير أخذ يفكر – وربما لأول مرة

- في أن زوجته لو كانت موجودة معه لما حدث أي شيء من هذه الأمور .. أنها لم تشعره قبل ذلك بأي من هذه الأحداث بالرغم من تعرض المسكن لمشاكل مشابهة من قبل، والدليل على ذلك أرقام هواتف السباك والنجار والكهربائي الموجودة بالدفتر وبعد بعض الوقت اكتشف أنه قد أهدر حق هذه السيدة طويلًا، وأنها تحملت منه ما لا يستطيع أحد تحمله ولم يشعر معها يومًا بتململ أو بضجر من أفعاله وأعماله، لذلك فقد عزم أن يكافئها بعد عودتها بأي شيء تريده.

واحتار في نفسه ما الذي يمكن لزوجته أن ترغب فيه .. وشاء الله أن يهديه إلى أن ما تريده زوجته أن تشعر به بجانبها، وليست هي التي بجانبه وأن تزور أهلها وأن يزورها أهلها فهذا ما تتمناه أي امرأة في مكانها.

وبدون أن يشعر قام من السرير وارتدى الملابس التي أعدتها له زوجته على سبيل الاحتياط، ونزل إلى الشارع وركب سيارته وسار بها إلى أن خرج من المدينة على طريق القاهرة، وقبل أن تتجاوز الساعة الحادية عشر كان يتناول عشاؤه مع زوجته في أحد المطاعم بالقاهرة، وهي غير مصدقة لهذه المشاق التي كابدها وهذه الرحلة التي كافأها بها.

وتم إلغاء مواعيد السبت كلها فالأستاذ فؤاد وزوجته لن يعودا من القاهرة إلا في مساء ذلك اليوم وقد تغيرت نظرة كلا منهما إلى الحياة.

اللي اختشوا ماتوا

حقًا (اللي اختشوا ماتوا) وهي قد اختشت فماتت .
تذكر المثل وهو يجلس في سرادق العزاء .. إنه قد سمع من قبل أنه فيما مضى من الزمان، كان هناك بعض النساء يتحممن في أحد الحمامات العمومية القديمة، والتي كانت منتشرة في مصر . وفجأة انهار المبنى الذي يقع فيه الحمام، فمن خافت على نفسها من الموت خرجت من الحمام وهي عارية، ومن استحت أن يراها الناس على هذه الحالة وقع عليها سقف الحمام وماتت . ومن هنا ذاع الأمر بين الناس بأن(اللي اختشوا ماتوا)
شقيقته أيضًا قد استحتت وماتت .. إنه لا يدري لماذا حينما أحست بانهيار العقار لم تخرج من الحمام وتهرع إلى الخارج، كما طلبت منها والدتها- نعم لقد كانت تستحي من أن يراها الناس في أي وضع يعيبونها عليه . كانت تتأذى عندما يلتفت أحد إلى شرفتهم - ولو مصادفة - وهي تنشر بعض ملابسها لتجف .. حتى ملابسها الداخلية كانت تنشرها في حمام البيت وتغطيها بمفرش من البلاستيك حتى لا تقع عيناه عليها .. لقد كانت مثالًا للأدب والأخلاق .
تذكر ابتسامتها الرائعة وقلبها الحنون .. تذكر كلامها الطيب وذوقها الرفيع، تذكر أخته وسنده وعونه في الحياة .
لو كان موجودًا بالبيت لتمكن من حمايتها، حتى لو كان ذلك سيكلفه حياته، ولكنه كان يحضر لها الإفطار الذي طلبته.. ولم يكن أحب إليه من أن يلبي لها ما تطلب .. وقد انهار العقار قبل أن يعود .
شاهد والدته تخرج إلى الشارع، وشاهد شقيقه الأصغر خلفها مع باقي الجيران، ولم تخرج هي .. قالت والدته أنها لم تقبل أن تخرج من الحمام وهي عارية :

-قلت لها يا بنتي اخرجي البيت بيقع-
قالت : -حاضر يا ماما ثانية واحدة-.
لكن القدر لم يمهلها هذه الثانية لتستر نفسها، واختطفها الموت من بينهم لتلحق بوالدها، الذي لم يحب أحدًا مثلما أحبها .. هي الوحيدة التي أوصى عليها قبل موته منذ سنوات . .قال له وهو يرقد على فراش الموت: -وصيتك أختك يا منير-.
ثم فاضت روحه إلى بارئها .. الله يرحمك يا بابا ويغفر لك يا هند.
كان يتقبل العزاء من المعزيين وهو لاهٍ عما حوله وعمن حوله .. لا يعرف إلى من يمد يده ولا من يمد له يده .. كان يتقبل العزاء بلا وعي ولا إدراك وكأنه غريب عن الأحداث . لا يعرف من التي ماتت ولا يعنيه أمرها في شيء .
آه لو يعرف هؤلاء الناس ماذا كانت تعني له هذه الأخت لبكوا لحاله أكثر من بكاءهم لفراقها .
كان غارقًا في أفكاره عندما شعر بيد تربت على كتفه، فنظر فإذا عمه يطلب منه أن يساعدهم في توديع من تبقى من الناس، فالعزاء قد انفض وانتهت بذلك صلة هند بهذه الدنيا، ولم يبق لها إلا أن يتذكرها أحد فيقول: الله يرحمها
لم يستطع أن يمنع عيناه من البكاء وهو يقول : -فراقك صعب أوي يا هند .. الله يرحمك يا أختي ويصبرنا على فراقك- .

السفيرة عزيزة

وها هي تخطر على باله مرة أخرى، لتستولي على لبه وتأسر نفسه بجمالها الأخاذ وطلعتها البهية، وها هي روحه تكاد تخرج من جسده لترفرف حولها لتقيها من كل سوء، وتدفع عنها كل أذى، في الوقت الذي كان فيه قلبه يخفق بشدة من أجلها ولسانه يطلب الإذن لمناداتها، وهي أول مرة يطلب فيها الإذن بذلك ..

لقد اعتاد أن ينتظرها كل يوم في نفس الميعاد، وهي تمر من الشارع يتتبعها ببصره، وتشتعل نيران الحب في قلبه، وعندما تقترب منه يدير وجهه في الاتجاه الآخر، خشية أن تنظر في عينيه فتقرأ ما فيهما من دلائل الحب وأمارات العشق .

أما اليوم فهو يفكر أن يتحدث إليها وتتسارع الأفكار في رأسه ..... أمن الممكن أن يتكلم معها ويعبر لها عن حبه وهيامه أم ينتظر لوقت آخر؟

إنه يخشى أن يخاطر ويناديها فتلتفت عنه، أو ترد عليه بما يسيئه من عزوفها عنه .. وفكر ما الذي سيضيره من ذلك ؟ إنه يحبها وسيظل يحبها ... إنه لا يمتلك قلبًا يستطيع أن يحب كما يشاء ولكنه يمتلك قلبًا لا يستطيع إلا أن يحبها ... من أجلها خلق هذا القلب، ومن أجلها يحيا، وبها ينبض فماذا لو عزفت عنه ؟ أيغير هذا من الأمر شيئًا ؟ ... أبدًا .

إذن فليناديها ويخبرها بما يجيش في قلبه ولكن بماذا يناديها ؟.. هو لا يعرف اسمها ولا يهمه أن يعرف .. إنه يحبها أيًا كان اسمها وأيًا كان أصلها وأيًا كان فصلها .. واستقر رأيه في النهاية على أن يناديها لكن الصراع الذي في رأسه لم ينته بعد . فإذا ناداها وردت عليه فماذا يقول لها ؟ .. أيقول لها مباشرة أنه يحبها؟

أم يبدأ معها حوارًا عاديًا عن التعارف والإعجاب كالذى كان يحدث في ستينيات القرن الماضي؟. وهل إذا ناداها وتكلم معها - بأي شكل - هل سترد عليه وهل ستستجيب له أم ستلتفت عنه وتمضي وكأنه لم يتكلم وكأن نيران الشوق التي تشتعل في قلبه لا تمت لها بصلة وليست هي السبب فيها .
ما هذا؟ .. إنها تبتسم له .. تلفت حوله لعلها تبتسم إلى غيره، ولكن لا يوجد في المكان أحد سواه.. كيف ذلك ؟.. أيمكن أن يتحقق الحلم على هذا النحو ؟ ... بل إن ما يحدث يفوق أجمل الأحلام بمراحل .. فرك عينيه بأصابعه ظنًا منه أنه نائم، وعاد ينظر إليها لتقابله نفس الابتسامة الجميلة التي تأسر قلبه وروحه . . ماذا يفعل ؟.. لقد توقف عقله عن التفكير ويكاد قلبه أن يتوقف عن النبض من شدة الفرح .
ذهب نحوها مقدمًا قدم ومؤخرًا أخرى، وهو ينظر نحوها في بلاهة وعدم تصديق، ولما وصل إليها وجد يدها تمتد إليه بالسلام .. ياه .. إلى هذه الدرجة .. ابتسامة وسلام بالأيدى وربما حوار يطول ويتشعب .. مد يده واحتضن بها يدها في حنان، وهو يمني النفس أن يحتضنها بذراعيه كما يحتضن يدها بيده .
بادرته بقولها : -إزيك يا أستاذ حسن-
ماذا ؟.. إنها تعرف اسمه .. ربما تكون إحدى صديقات شقيقته ؟ لكنه لم يرها معها قبل ذلك وهو يعرف كل صديقاتها ... ربما تكون بنت إحدى معارف والدته .. ربما
لم تمهله الوقت للتفكير ولم تنتظر إجابته على سلامها بل أتبعت قولها.
- حضرتك مش عارفني ؟ . أنا صفاء جارتكم .
-أخ- ... بعد كل هذا تكون جميلة الجميلات التي اختطفت روحه وأسرت قلبه هي صفاء أخت عصام بلطجي المنطقة ؟
وتسائل بينه وبين نفسه عما يجب أن يفعل،
إنه حقًا لم يرها من قبل ولكنه يعرف من شقيقته أن عصام له أخت اسمها صفاء، من يراها يعتقد أنها أميرة من الأميرات، ولا يمكن أن يظن أنها أخت هذا البلطجي .

لا يدري لماذا تذكر ساعتها فيلم -السفيرة عزيزة- للرائعيين شكري سرحان وسعاد حسني، وتساءل أيمكن أن يكون هو الرجل الذي حكمت عليه الأقدار بأن يحب أخت المعلم ؟ .. بل ربما تكون أخت الجزار أفضل كثيرًا من أخت البلطجي .
فذلك يمكن التفاهم معه، عن طريق الأصدقاء أو الجيران أو رجال الشرطة، أما هذا فكيف يستطيع التفاهم معه، وهو ليس له أي علاقة بهذا المجال، ولم يسلك هذا الطريق من قبل ولا يعرف أحدًا قد سلكه .
أنهى تفكيره وهو يغتصب ابتسامة من بين شفتيه ويقول:
- -إزيك يا صفاء وإزي عصام؟-
قالت في بساطة : الحمد لله بخير .. وأضافت لتطيل الحديث :.
- -وأخبار وفاء إيه ؟- ... إنها أيضًا تعرف وفاء أخته
رد عليها : -الحمد لله- ... ثم انصرف وهو يقول .. – -عايزة حاجة ؟-
ولم ينتظر إجابتها بل مضى في طريقه وهو لا يدري إلى أين يذهب .

حبة فوق . . . حبة تحت

-حبة فوق- .. -وحبة تحت- ... هكذا غناها أحمد عدوية فيما مضى وهكذا هو يغنيها الآن، وهو صاعد درجات السلم إلى شقته (اللي فوق) حيث تقيم زوجته، بعد أن ودع شقة والده (اللي تحت) حيث تقيم والدته .
كان لسان حاله يقول (الله يرحمك يا بابا) وهو لا يدري أيشكر لهذا الأب الطيب أن وفر له الشقة التي يتزوج فيها، وجنبه عناء البحث عن شقة يناسبه إيجارها، والانتقال منها بعد سنوات إلى شقة أخرى، ثم أخرى وأخرى وهكذا .. أم يعتب على هذا الأب أن زوجه من ابنة أخته التي لا تحبها والدته ولا تتوافق معها .
لقد مل من النقاش، وكل من الشجار، فهذه تشكو لإخوته أنه لا يستطيع أن يمر عليها إلا بعد أن يستأذن الهانم (اللي فوق)، وتلك تشتكى لإخوتها - وإخوتها يعتبون عليه - أنه لا يستطيع أن يصعد إليها إلا بعد أن يحصل على موافقة الهانم (اللي تحت)، وهو بينه وبين نفسه متيقنًا تمامًا أنه لم يأخذ إذن هذه في يوم ليذهب إلى تلك، ولا حصل على موافقة تلك ليصعد إلى هذه، وإنما الأولى أمه ولها عليه كل الحقوق، وهو لا يستطيع - لأنه يحبها ويوقرها - أن يتسبب لها في أي ضيق، بل هو على استعداد لأن يفتديها بعمره وروحه وكل ما يملك .. أما الأخرى فهي زوجته التي جعل الله بينه وبينها المودة والرحمة، وأوصى عليها رسوله -صلى الله عليه وسلم -بالإضافة إلى ذلك فهو يحبها ولها منزلة عظمى في قلبه، فهي التي وقفت بجواره في أحلك لحظات حياته، ولم تبخل عليه بذهبها ولا بمالها التي ورثته عن والدها لتقيه شر الأيام وغدر الزمان .
لقد فكر أكثر من مرة - وقد تحسنت أحواله المادية - أن يستأجر شقة أخرى

ليقيم فيها مع زوجته، عسى هذا الأمر أن يريحه من عناء تلك الأقاويل التي لا تنتهي، والتي ليس لها أي أساس من الصحة .. وقد شجعته زوجته على ذلك ورحبت بالفكرة، بل وسعت إليها فجندت شقيقها لإيجاد الشقة المناسبة لهما . ولكنه عدل عن ذلك بعدما رأى أثر هذه الفكرة على وجه أمه، واستنكر من نفسه أن فكر فيما يسعده حتى ولو كان في سعادته الشقاء لوالدته .. ودار السؤال في رأسه .. كيف تحيا هذه السيدة بمفردها بعد أن تزوجت شقيقاته البنات، وذهبت كل منهن لتحيا مع زوجها في بيته وبعد أن سافر شقيقه إلى الخارج؟

أمن المفروض عليها بعد أن قضت سنوات عمرها في الكد والشقاء في تربيته وتربية إخوته ورعايتهم .. أمن المفروض عليها بعد كل ذلك أن تنزل بنفسها - بعد أن تعدت سنوات عمرها السبعين - لتقف عند فرن العيش أو أمام البقال والجزار وما شابه ؟

أهذا هو رد الجميل لهذه السيدة ؟

لا والله .. أقسم بينه وبين نفسه أن ذلك لن يحدث أبدًا ما دامت روحه في جسده .. سيبقى بجوار والدته حتى لو أدى ذلك إلى شقاءه وشقاء زوجته بل ولو أدى إلى خراب الدنيا كلها فيكفيه أن تسعد والدته لكي يكون العالم سعيدًا بأكمله .

هو لن ينتقل للعيش في مكان آخر .. لن يترك والدته ويحيا بعيدًا عنها، وهذا هو قراره النهائي الذي سيتم تنفيذه

كانت هذه الفكرة هي ما يدور في رأسه، وهو يدير المفتاح في مزلاج الباب مستعينًا بالله على الساعات القادمة.

حالـــــــــة

وأشتاق إلى شوقي إليها وتفكري فيها .. وتأخذني أطياف العشق إلى دنياها، وتأخذني قصص الغرام إلى كلماتها، فأتذكر كيف كنا نسير سويًا فلا يرانا الناس إلا واحدًا، وكيف كنا نفترق فيصحب كل منا قلب الآخر وعقله ووجدانه إلى حيث يذهب فيرانا الناس كثير.

أتسائل بيني وبين نفسي كيف تثنى للزمن أن ينهي هذه الأيام، وكيف اختتمت تلك القصص، وإلى أين ذهب ذلك الحب وهل كتب له - كما كتب لغيره - أن يتوارى في دروب النسيان وأن يذهب في طريق اللاعودة بعد أن كان كل منا يعتقد في قرارة نفسه أنه باق مادامت الحياة باقية، وأنه سيظل حيًا مادامت الروح تسكن بين جنبينا .. أين ذهب هذا الحب ؟

كيف هان علينا ؟ .. أو بالأحرى كيف هنا عليه ليتركنا وسط أمواج الحياة العاتية بلا طوق نجاة وبلا سبيل إلى شاطئ من شواطئ الأمل ؟ ... كيف هنا عليه فتركنا نغرق بلا قشة نتعلق بها عساها تكون سببًا لنجاتنا ؟

أحقا كل ما عشناه لم يكن إلا وهمًا ؟ .. أتراه كان صفحة من صفحات كتاب العشق وقصص الغرام التي يمتلئ بها دفتر الأيام والتي ابتدأت مع بدء الخلق ولن تنتهي إلا بنهايته ؟

أتذكر ذلك الشاطئ البعيد الذي احتضن حبنا، ولملم حوله الأحلام والآمال، وأخفاه عن عيون الناس حتى يكبر ويشتد عوده .. يا ليته ظل يحمينا ويخفي حبنا عمن حولنا .. ويا ليتنا لم نتعجل نمو هذا الحب الذي ما أن كبر كما أراد الشاطئ، وكما أردنا وما أن اشتد عوده كما تمنينا حتى تركه للناس، وقال لهم بكل فخر - انظروا لهذا الحب نمى فوق رمالي وهدهدته أمواجي وها هو قد

أضحى جميلًا بهيًا وها هما قد أصبحا جسدين بقلب واحد وروح واحدة وعقل واحد بعد أن كان لكل منهما عقله وروحه وقلبه .. ووعى الناس ما قال وأبوا أن يتفوق الحب الذي رباه الشاطئ على الحقد والكره الذي امتلأت به أنفسهم فعاثوا في هذا الحب الفساد، وأخذوا يطعنونه بأسلحتهم ويرمونه بحجارتهم حتى مات الحب بلا أن تسقط عليه دمعة أو يرثيه شاعر .

أتراني لو ذهبت إلى ذلك الشاطئ الآن أجده مازال يذكرني ومازال يحتفظ بهذا الزهو وهذا الفخر أم أجده قد وجد حبًا آخر لينميه ويكبره ثم يرمي به بين أحقاد الناس وكراهيتهم ليفعلوا به مثلما فعلوا بنا ثم يعيد الكرة مع غيره وغيره .

إنني مازلت أتسائل يا ترى ماذا فعلت بك الأيام يا حبيبة قلبي وأين أنت الآن ؟ في جنة الحب ... أم في نار الشوق ؟

جووووووون

عادت منال من عملها في هذا اليوم الحار مبكرًا - على غير عادتها بعد أن أصبحت لا تقوى على تحمل آلام بطنها التي واتتها في المصنع . وما أن خطت داخل الحارة التي يتوسطها منزلهم وهي تمشى بجسدها المترهل ووجهها المرهق وبطنها التي يعتصرها الألم إلا واصطدمت بها كرة كان يلعب بها شقيقها الصغير مع بعض أقرانه، وجاءت الكرة في نفس المكان الذي يعتصره الألم من بطنها، مما جعلها لا تقوى على حمل نفسها . الأمر الذي هوت معه على الأرض وهي تتألم في إعياء شديد .

وما أن رآها شقيقها على هذه الحالة حتى خف مسرعًا إليها، وهو يلعن من قذف بالكرة بدون تبصر على هذا النحو، وبعد مجهود مضن استطاع مع أقرانه وبمساعدة بعض السيدات من أن يحمل شقيقته على الوقوف والسير إلى مسكنهم . وما أن اقتربت منال من المسكن حتى فوجئت بكرة أخرى تنطلق كالقذيفة من شباك مسكن الحاج حمزة المواجه لمسكنهم لتستقر في نفس المكان الذي استقرت به الكرة الأولى .. وكما حدث في المرة الأولى فقد هوت منال على الأرض وهي تئن من الألم وتلعن الأطفال ولعب الأطفال والحر والمصنع وكل ما حولها.

وكما حدث في المرة الأولى فقد تمكن شقيقها - بمساعدة وفاء ابنة الحاج حمزة وابنيها اللذان كانا يلعبان بالكرة - من حمل منال على الوقوف وإصلاح ما فسد من هندامها والسير مرة أخرى إلى المنزل.

طرقت منال على الباب بإعياء، ولكن ما أن فتح الباب حتى فوجئت بكرة ثالثة تصطدم بنفس المكان الذي اصطدمت به الكرتين الأولى والثانية وكانت الكرة

هذه المرة مقذوفة من ابن شقيقتها الكبرى الذي يلهو بها بمفرده داخل المنزل . وكان من الطبيعي ألا تتحمل منال كل هذه الطلقات خاصة مع حرارة الجو العالية والتعب الذي حل بها من جراء العمل بالإضافة إلى جسدها المترهل الذي جعلها هذه المرة تهوى على الأرض بدون أن تنطق .

وظلت منال على هذه الحالة فترة من الوقت كان فيها كل من في البيت يحاول أن يجري عمليات الإفاقة والإغاثة مستخدمين في ذلك كافة الوسائل من بصل ومياه ولطم على الخدود إلى أن قامت معهم بالسلامة إلى غرفتها وهي في قمة الإعياء .

الذي لم يعرفه الجميع أن سبب عودة منال مبكرًا من عملها أن ابن صاحب المصنع الذي تعمل فيه كان يلاعب ابنه بالكرة أثناء مرورها لقضاء بعض الأعمال عندما قذف أحدهما بها - عن عمد أو غير عمد في اتجاهها في نفس المكان الذي اصطدمت به الكورات الثلاث وكأن هذا المكان قد كتب عليه (جووون)

بين ذراعيه

تعثرت في مشيتها وكادت أن تسقط على الأرض، لولا أن أدركتها يده لتضمها إلى حضنه الذي طالما تمنت أن ترتمي فيه ... تناست كل الكلام القاسي الذي كانت ترميه به منذ ثوان قليلة عن خيانته لها وتعلقه بأعز صديقاتها.
تناست أيضًا كلامه الأشد قسوة عن تبلد مشاعرها وبرود أحاسيسها، الذي جعله عرضة لاستقبال رياح الحب التي تثار من حوله في كل مكان .
ذابت بين أحضانه، وتمنت أن يتوقف الزمان عن الدوران، وأن يختفي المكان، ويتوارى الناس، ولا يبقى في الدنيا إلا هو وهي فقط، وأن يعيشا معًا حياة الإنسان الأول بعيدًا عن كل مغريات الحياة الحديثة ومشهياتها .
شعورها بالدفئ بين ذراعيه أعطى لدموعها الإذن أن تنطلق ساخنة غزيرة فوق وجنتيها نزولًا إلى صدره الذي أراحت رأسها عليه .. وطالت وقفتها وكأنها تعوض ما فاتها من دفئ وحنان منذ أن ظهرت تلك الصديقة في حياتهما حتى الآن ...
وطالت وقفتها وكأنها تستعيد ذكرى أول مرة يضمها فيها ليبثها حبه وأشواقه ... كم تمنت أن تعود هذه المرة وأن تستعيد إحساسها مرات ومرات فبالرغم من أنها كانت منذ سنوات إلا أن حلاوتها لم تفارقها حتى الآن .. وها هي تكاد أن تتذوق هذه الحلاوة مرة أخرى وها هي تنهل منها قدر ما تستطيع عساها تشبع من هذا الحضن الدافئ الذي طالما اشتاقت إليه ...
أحست أن هذه الحالة يصعب تعويضها فيما بعد ولذلك لم تشأ أن تضيع متعتها ولو للحظة واحدة .
أفاقت من سرحانها على صوته المتبرم وهو يقول: حبيبتي يلا علشان أتأخرت على الشغل .

نظرت إليه بعينين تملأهما العبرات وهي ترجوه بنظراتها أن يبقى بجانبها وألا يتركها وقابلها هو بابتسامته الهادئة التي تحبها قبل أن يفلتها من يده وهو يقبلها على جبينها ويذهب إلى حيث تعلم أين سيكون .

الحلـــــم

وها هو طيفها يزوره مرة أخرى في المنام، ليشعل نيران الشوق في قلبه ويثبت له أن هذا القلب لا ينبض إلا بحبها، وربما لن ينبض إلا من أجل هذا الحب.
لقد كان حلمًا قاسيًا وجميلًا في آنٍ واحد، فقد رأى أنه تائه في صحراء وليس فيها إنسان غيره .. الرمال تترامى على مدار بصره، لا شجرة ليستظل بها ولا عين ماء ليرتوي منها.
ظل سائرًا تحت لهيب الشمس، أسيرًا لآلام الجوع والعطش، إلى أن أصيب بإغماء أفاق منه ليجد نفسه ممدًا في حجرة تفوح رائحة الزهور من أركانها، ورأسه يرقد في حجرها، وهي تضع قماشة رطبة على جبهته لتخفف من حرارته.
ما أن فتح عينيه والتقت بعينيها حتى أحس بقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه من شدة الفرح... حاول أن يقوم من رقدته لكنها خفضت رأسها لتلتقي شفتاها بشفتيه في قبلة طويلة أنسته عناء الصحراء وأوجاع الجوع والعطش، ثم تمددت إلى جواره على الأرض وغابا في عناق وقبلات، أفاق منها على صوت المنبه داعيًا إياه إلى الاستيقاظ، فقد آن الأوان ولاح الصباح، فقام من نومه متثاقلًا، وهو يود لو يكمل نومه لينعم بها من جديد .
إن اليوم الذي يمر بدون أن يراها فيه هو من أتعس أيام حياته .. وكيف لا وهي الشمس التي بها تشرق أيامه، وهي القمر الذي ينير ظلمات لياليه، وهي الدفئ إذا اشتد شتاؤه، والربيع الذي يرطب حرارة أوقاته،
لم يجد أمامه في النهاية إلا أن ينفض غبار النوم، وأن يقوم ويغتسل ويذهب إلى عمله، وما أن دخل إلى مكتبه حتى طالعه وجهها الصبوح وابتسامتها العذبة وكلماتها الآسرة :

- -صباح الخير يا مدحت-
حقًا ما أجمل اسمه حينما تنطق به شفتيها، وما أجمل يومه حينما يبدأ ببسمتها، وما أجمل حياته إذا كانت معها .
هم بأن يخبرها بالحلم الذي رآه لكنه وقف عاجزًا - بعد أن ناداها - عما يقول فكيف يحكي لها عما رآه فحياؤه يمنعه من ذلك، كما أن أخلاقها - التي يعرفها جيدًا - تمنعها من الاستماع إليه ولذلك نظر إليها في ارتباك ولم يجد أمامه إلا أن يقول :
- -يا ترى ممكن آجي أشرب الشاي عندكم النهارده.
خفضت رأسها إلى الأرض في خجل وهي تقول :- -تشرف في أي وقت .... البيت بيتك-
وأحس ساعتها بأن أحلامه في طريقها إلى أن تصبح حقيقة .

إسكندراني

خرج من بيته المجاور لمحطة مصر، وقبل الذهاب إلى عمله - كعادته - عبر ميدان المحطة، وسار في شارع النبي دانيال .. لم يلتفت إلى بائع العصير عندما حياه، كما لم يدخل إلى دار الهلال - كما هو المعتاد - ليطالع ما بها من كتب ومجلات. وإنما سار في الشارع ذاهلًا عن الدنيا كلها، وعن العالم بما فيه حتى وصل إلى مطحنة البن البرازيلي فاتجه شمالًا إلى ميدان القائد إبراهيم، ومر منه سريعًا إلى الكورنيش حيث جلس على أحد الصخور المواجهة لمياه البحر وبكى .
كانت أول مرة يبكي فيها أمام البحر .. فعل أمامه كل شيء إلا البكاء ..صمت وتكلم وأنصت .. ضحك وتألم وصرخ .. كل ما يمكن أن يفعله كان لا يستحي أن يفعله أمامه إلا البكاء ... كان البحر دائمًا هو ثاني مخلوق من مخلوقات الله يستطيع أن يبوح أمامه بكل ما بداخله .. كان أبيه والبحر هما من يحتضنان أحزانه وأوجاعه ويباركان سعادته وأفراحه، أما الآن فلم يعد له من مخلوق يقوم بهذا الدور إلا البحر .. فقد انتهت بالأمس أيام العزاء في وفاة والده ... هذا الوالد الذي كان نعم السند والمعين .. هذا الوالد الذي كان بمقدوره أن يجد الحل لكل ما يئن له من أمور وما يتعرض له من مشكلات .
اليوم لم يعد له إلا البحر ليحكي له ويسمع منه ... إنه لا يعرف ماذا يقول له .. كان كل يوم يجلس على هذا الصخر يتكلم مع البحر عن كل شيء .. عن زوجته وعن ابنته وعن أصدقاءه وزملاءه في العمل وعن مشاكله في الحياة، وكان يشعر أن البحر يتابعه في كل ما يقول ويرد على استفساراته ويجيب على أسئلته، أما اليوم فهو لا يعرف ماذا يقول ولا عن ماذا يتحدث .
ربما يعرف البحر - من طول العشرة - ما يعتمل في صدره وما يجيش به فؤاده

.. ربما لا يحتاج إلى أن يسمع شكواه ولكن البحر لا يرد عليه .. أمواجه لا تُنبإه بشيء .. شعر بأن هذه المشكلة أكبر من أن يرد عليها البحر أو أن يعرف لها حلًا .

أحس بأن البحر يطلب منه ألا يبكي فالحياة والموت مقدران من عند الله، وليس للبشر رأي فيهما فلله ما أخذ ولله ما أعطى .

أنصت - كعادته - للموج وشعر بالراحة تسري في جسده، وأحس بأن حملًا ثقيلًا ينزاح من على صدره وما هي إلا دقائق حتى قام من مكانه وذهب إلى عمله .

أكثر مما ينبغي

لماذا يجب أن ينتهي اللقاء في كل مرة على هذا النحو ؟... لماذا أصبح اللقاء الذي تتمناه هو أشد ما تخشاه ؟... فكرت في الأمر وهي عائدة إلى منزلها بعد لقاء حمل في طياته من العواصف والأعاصير ما يفوق سابقيه .. لماذا لا يقتنع أن من حقها أن تحبه بطريقتها كما من حقه أن يحبها بطريقته ؟.. أيجب عليها في كل مرة أن تستسلم لرغباته في الإمساك بيدها واحتضانها وتقبيلها وما شابه من غير أن يسمع كلامها، وأن يلهمها الحل في مشكلاتها وأن يبحث ما يعن لها من أمور تظل تجمعها في مخيلتها حتى تلقاه ... إنها حقًا تحبه وتعشقه وليس في حياتها أمنية أغلى من أن تكمل حياتها معه، ولكنها لا تحبه بهذه الطريقة . .. بل لم تعد تحب منه تلك التصرفات ... لقد حاولت أكثر من مرة أن تستلهم منه الشعور بالمتعة وهي تضع يديها بين كفيه أو وهي ترضى بقبلاته وأحضانه . وحقًا كانت متعة ما بعدها متعة وهل هناك ما هو أمتع من أن تكون في حضن من تحب أو من أن تقبل من تعشق ... إن الإحساس بالمتعة الذي تحسه في تلك اللحظة يفوق الوصف، ولكنه إحساس قصير ولا محالة زائل فكانت دائمًا ما تغادره بعد ذلك والإحساس بالذنب يشعل النار في كل كيانها .. لماذا لا يهواها كما تهواه ؟ ... هي تقنع بالحديث إليه والاستماع منه .. تقنع بوروده البسيطة وهداياه الصغيرة . فلماذا لا يقنع هو منها بأى شيء من ذلك ؟.. لماذا يفضل طريق القبلات واللمسات على طريق المشاعر والأحاسيس ؟!

كانت تصعد درجات السلم إلى مسكنها وهي تتذكر شعورها بعد كل مرة تسلم له فيها قيادتها .. كانت تشعر بأنها كانت كالتي تستحم وفجأة اقتحم الناس عليها الحمام، فهي تحاول أن تواري سوءتها عمن حولها ولكنها لا تجد

ما تداريها به .. تحس بوالدها ينظر إليها في خجل وشقيقها ينظر إليها في غيظ .. إنها تشعر بأن كل من حولها ينظر إليها إما في اشمئزاز أو في عتاب والكل يسأل سؤال واحد ..

- -ليه ؟؟ ... اتجوزيه وبعد الجواز اعملي اللي انتي عايزاه -.

حقًا لقد وعدها بالزواج أكثر من مرة لكن الظروف مازالت تمنعه من إتمام ذلك الزواج .. إنها مقتنعة تمامًا بأنه عما قريب سيتقدم لخطبتها .. إنها متأكدة من صدق مشاعره وصدق إحساسها .. لماذا إذن يرفض أن ينتظر حتى تكتمل تلك الخطوة ؟.. ثم ما سر هذا اللوم الذي يقابلها به في كل مرة ترفض فيها أن تستجيب لما يطلب؟ فإما أن يفعل ما يشاء وإما أنها لا تحبه ولا تهواه، لأنها لو كانت تحبه لوثقت فيه ووثقت من وعوده ولأحبته بالقدر الذي يحبها به ... إنها على يقين بأن حبها له يفوق حبه لها بآلاف المرات ولكنها لا تستطيع أن تحبه بهذه الطريقة .. ليس ذنبها أنها تربت في أسرة تعرف الفرق بين الصواب والخطأ وتحاول اتباع الأول واجتناب الثاني ... ليس خطأها أنها لا تشبه الأخريات ممن يحكي عنهن وعن حبهن لأصدقائه وماذا تقلن وكيف تتعاملن .. لقد أخبرته فيما سبق أنها لا تحب هذه الأمور وأنها إذ تفعلها فإنها تفعلها لأجله فقط وعلى غير رغبة منها، وطلبت منه مرارًا وتكرارًا أن يحترم رغباتها كما تحترم رغباته، فليس كل لقاء بينهما موعدًا لإطفاء نيران جسده المشتعلة، بل يجب أن يستمتع كل منهما بالحديث إلى الآخر والإصغاء إليه .

إنها تعترف أن جانبًا كبيرًا من الخطأ يقع عليها، فهي من سمحت بحدوث مثل هذه الأمور في بداية الأمر ... لا تتذكر الآن كيف بدأ الأمر، ولكن يبدو أنها كانت تخشى أن تفقده إذا لم تفعل ذلك وها هي قد فعلت فما هي النتيجة ؟... إنه حقًا لم يتركها ولكنه أيضًا لم يرتبط بها .. إنها كالمعلقة التي لم تصل إلى السماء التي تحلم بها ولم تهبط إلى الأرض التي هربت منها . فهل سيستمر الأمر لفترة طويلة أم آن الأوان لتنتهي تلك المعاناة ؟!

كانت قد بدلت ملابسها وآوت إلى فراشها وتأهبت للنوم وقبل أن تنام نظرت في هاتفها فوجدت رسالة لم تسمع صوتها .. فتحت الرسالة فإذا هي منه :.

- -مهما عملتي فيا .... بموت فيكي- .
في لحظات كانت قد تناست كل ما كانت تفكر فيه وأحست بالراحة وبالسكينة تغمر كيانها ولم تستطع النوم لفترة طويلة فقد أصبح الشوق إليه يعذبها أكثر مما ينبغي .

أعز الناس

قامت من نومها مفزوعة بعد هذا الكابوس الرهيب الذي لم تعرف كيف تسلل إليها وارتبط بها .. أخذت تشهق في خوف وهلع وتبحث في ظلام الغرفة عمن يخفف من هلعها ويهدئ من نفسها أو من ترتمي في حضنه ليخرجها مما هي فيه .. أخذتها بعض الدهشة لما رأته يجلس بجانبها على السرير متكئًا على الوسادة الصغيرة هادئ النفس كعادته .. ولم تطل دهشتها فرمت بنفسها عليه لتبثه خوفها وهلعها وتلتمس في هدوءه بعض السكينة لنفسها .

سمعته وهو يبسمل ويحوقل ويتلو الأذكار فأدركت لماذا استيقظ في تلك الساعة وقد تأكد ظنها لما سمعت قرآن الفجر قادمًا من المسجد القريب .

هو بدوره شعر بما تعانيه - فمن غيره يشعر بذلك - فأحاطها بذراعه وأراح رأسها على صدره وأخذ يهدهدها ويطمئنها، ويخبرها بأن كل الأمور بخير ولا داع لهذا الخوف والهلع فما رأته لا يعدو إلا أن يكون مجرد كابوس وقد ذهب إلى حال سبيله.

ومازال بها يحنو عليها ويربت على رأسها حتى اطمأنت نفسها وعادت للنوم مرة أخرى وقد تبدل خوفها إلى أمن وهلعها إلى سكينة فعلت الابتسامة وجهها وكأنها تقول :

- -أبقاك الله يا أبي ومتعك بالصحة والعافية -.

أعز الصديقات

كانت تصعد درجات السلم المؤدي لشقة صديقتها، وهي تمني نفسها بوجودها وعدم ارتباطها بأى موعد واستعدادها التام لسماعها ونصحها فيما هي مقدمة عليه .. كانت تعلم أن هذه الصديقة هي فقط التي تستطيع أن تتكلم أمامها بدون مواربة أو خجل، وهي الوحيدة التي تثق فيما تنصحها به وتقدمه لها من حلول، وبالطبع هي الوحيدة التي يمكنها الأخذ برأيها في موضوع زوجها . . ذلك الموضوع الذي أصبح محل حديث الجيران والأقارب والأصدقاء، والذي لم تتمكن حتى الآن من الإمساك بأى خيط يوصلها إلى وجه الصدق فيه . وهل ما تتلقاه أذنيها مما يتناقله الناس حولها هو الصدق ؟ أم أن الحقيقة هي أن زوجها مازال على سابق عهدها به الزوج الوفي الحنون الذي لم يقصر في حبها ولم يهفو قلبه إلى سواها وأن كل ما في الأمر بعض الوشايات والمكائد من بعض الحاقدين ممن حولهما .

أخذت تسأل نفسها هل فعلًا عندما يتأخر زوجها يكون في عمله ؟.. وهل عندما تشتم من ملابسه رائحة الخمر يكون مصدرها جلسة من جلسات العمل شرب فيها البعض وأحجم هو مع الآخرين ؟... وهل عندما يخطئ في اسمها وهي تحادثه تليفونيًا يكون بالفعل يتحدث إلى سكرتيرته في بعض الأعمال وهو يخاطبها ؟.. وهل وهل وهل ؟؟... أخذت تسترجع كل الشكوك والريب التي تكاد أن تفجر رأسها وهي تصعد السلم وتحاول في جهد جهيد أن تمنع بعض العبرات من أن تفر من عينيها .

دقت جرس الباب ففتحت لها صديقتها وبدون أن تشعر تهاوت على كتفها وهي تجهش بالبكاء ... ضمتها صديقتها وأدخلتها إلى البيت فجلست على

أقرب مقعد قابلها متجاهلة الارتباك الذي علا وجه صديقتها لما رأتها. وبعد أن شربت قليلًا من الماء أخذت تقص عليها ما تسمعه من المحيطين بها وما تسمعه من زوجها وترجو منها النصيحة فيما تفعله .. وفجأة أحست بدوار وبرغبة في القئ . فجرت مسرعة إلى الحمام . وما أن فتحت الباب حتى وجدت زوجها يقف أمامها عاريًا تمامًا.... فسقطت على الأرض مغشيًا عليها...

حظ قليل

-اتشعبطى ياخايبة في الحبال الدايبة- ... هذا المثل الذي درج الناس على ترديده هو ما ينطبق على حنان . بل ربما أن يكون من ابتكر هذا المثل قد توقع ما سيحدث لها فقرر ابتكار هذا المثل من أجلها، فهي حقًا خائبة لا تتعلق إلا بالأوهام ما وضعت ثقتها في أحد إلا وخانها، وما تعلقت وتشبثت بأحد إلا وأفلتها وما وضعت آمالها على أحد إلا وغدر بها .

وآخر المفارقات التي قابلت حنان أنها كانت مع والدتها فسمعت عن مريض يحتاج إلى نقل دم، شاء القدر أن تتوافق فصيلته النادرة مع فصيلتها فذهبت إلى الغرفة الخاصة به، وأخبرت من بداخلها برغبتها في التبرع بالدم وقد دهشت لما علمت بأن المريض شاب في مقتبل العمر فقد كثيرًا من دمه على إثر تعرضه لحادث، وسوف ينقله ذووه إلى مستشفى خاص لكن الأطباء أجمعوا على ضرورة أن تتم عملية نقل الدم قبل أن يتحرك من هذه المستشفى لأن هذا فيه خطر على حياته .

وبعد أن انتهت من مهمتها قابلها والده وعرض عليها مالًا نظير إنقاذها لحياة ابنه، فرفضت بأدب فهي لم تفعل سوى الواجب ... أعطاها الكارت الخاص به وهو يقول – -لو احتجتي أي حاجة يا بنتي تعالي لي على طول أو اتصلي بيا- .

يا فرج الله .. إنه مدير بأحد البنوك، وهي قد تركت عملها في الكوفي شوب منذ يومين، ولابد أن مثل هذا الرجل لن يجد صعوبة في أن يجد لها وظيفة .. أي وظيفة .

انتظرت أيام حتى تستقر حالة ابنه المريض، ثم قررت الذهاب إلى البنك مباشرة بدون أن تتصل به .. ظلت في الطريق تبني الآمال والأحلام على تلك الوظيفة

التي لم تعرفها بعد، فهي في حاجة للمال كي تدفع نفقات المستشفى التي تعالج فيها والدتها، ولتدفع إيجار الشقة التي تسكن فيها معها وإلى أن تشتري حذاء جديد بدلًا من ذلك الحذاء الذي كادت قدمها بكاملها أن تخرج منه وإلى ... وإلى ..

أخرجت الكارت من حقيبتها وأعطته للساعي وطلبت مقابلة البك .. قال لها الساعي – -حمدي باشا اتنقل امبارح فرع البنك في أسوان- .

-يااااه امبارح- .. يا للخسارة .. وها هو أمل آخر مات قبل أن يولد وحلم صنعته في مخيلتها فداسته الأيام قبل أن يتحقق .

خرجت من البنك وهي تسأل نفسها هل العيب فيها أم في الظروف؟ وما سر هذا الإخفاق الذي يلازمها أينما ذهبت ؟ ... وتوالت عليها ذكريات الفشل الذي منيت به في حياتها .. ليس عيبها أن والدها الذي تعلقت به وبنت آمالها على وجوده في حياتها قد تزوج بامرأة أخرى وتركها مع والدتها وسافر ليقيم مع زوجته في بلد بعيدة ..ليس عيبها أن الرجل الذي أحبته وانتظرته أكثر من ثلاث سنوات قد مل منها فجأة واكتشف - بعد خطوبة استمرت لما يقرب من عامين - أنها لا تناسبه ... ليس عيبها أن تمرض أمها وتذهب إلى المستشفى فتتغيب عن عملها في الوقت الذي يزدحم فيه الكوفي شوب بالزبائن وأيضًا تتغيب زميلتها مروة عن العمل فيضطر صاحب الكوفي شوب إلى تقديم الطلبات بنفسه، ويقرر طردهما معًا ...وبالطبع ليس عيبها أن يتم نقل الباشا إلى أسوان قبل يوم من لقاءها به .

ما الذي يحدث ؟ ... أهو أمر عادي أن تسير حياتها من إخفاق إلى إخفاق ومن فشل إلى فشل بسبب تعلقها بالآخرين ؟ ... ماذا تفعل لتكتمل ساعات فرحها ؟ .. أليس لها الحق في أن تحيا كأخريات مثلها وأن تحقق ما تهفو إلى تحقيقه ؟ مسحت دمعة سقطت من عينيها وهي تقترب من المستشفى ووقفت لحظة لتفكر في الحجة التي ستقولها اليوم لموظف الحسابات حتى تستأجل دفع الفواتير الخاصة بعلاج والدتها .

همسة الصباح

إلى من ينبض القلب باسمها .. ولا ترى العين إلا حسنها .. ولا تهفو الروح إلا إليها .. ولا تأنس النفس إلا بها .. مع حبي

كان هذا هو نص الرسالة التي وصلت إلى هاتفها في الصباح قبل ميعاد استيقاظها بخمس دقائق .. نظرت إلى رقم المرسل وبحثت عنه في ذاكرتها فتيقنت أنها لا تعرفه فهذا رقم مميز، وهي تحفظ كافة الأرقام المميزة وتعرف أصحابها حتى لو قامت بمحو تلك الأرقام من هاتفها.

أعجبتها كلمات الرسالة فلم تمسحها . ولكنها لم تعط للأمر أهمية، وأكملت استعدادها للنزول وذهبت إلى عملها، وما هي إلا ساعة أو يزيد حتى كانت رسالة الصباح ترقد في النسيان، فربما قد بعثها شخص ما إلى حبيبته فوصلت إليها بطريق الخطأ . فلماذا تتعب نفسها بالتفكير في أمر لا يعنيها .. وأكملت يومها كالمعتاد حتى المساء وقبل أن تنام تذكرت الرسالة فأعادت قراءتها مرة أخرى ثم نامت .

في الصباح التالي وجدت رسالة أخرى من نفس الرقم، فتحت الرسالة فإذا هي (مع إشراقة كل صباح ... وكلما ظهر الفجر ولاح .. تذكرت ضياء وجهك .. فأشرقت في الروح ألف شمس للأفراح ... مع حبي)

- -وبعدين ... هو كل يوم ؟!-

نطقت بالسؤال بصوت مسموع فسألتها أختها :.

- -مالك؟ .. فيه إيه يا داليا ؟-

أخبرتها بالذي حدث وأرتها الرسالتين، فاستحسنت أختها الكلمات، وقالت في تخابث : - -وماله .. يا ريتني كنت مكانك .. حد يطول يصحى الصبح على كلام

حلو كده-
ثم عادت لتسأل : -لكن مين العاشق الولهان ده ؟!-
استنكرت داليا الأمر فهي لا تعرف المرسل، ولا إذا كان يقصدها أم لا، ولما رأت أختها أنها جديًا تجهل ما يحدث نصحتها بأن تعتبر الأمر مجرد مصادفة، ولا تحاول الاتصال بالرقم فربما يكون بالفعل قد أرسلها شخص ما إلى حبيبته ووصلتها بطريق الخطأ. وربما كان عيبًا في شبكة الهاتف وبالتالي فإن اتصالها بهذا الرقم قد يجلب سخافات ومشاكل لا داع لها .. واقتنعت داليا بما قالته أختها وأكملت يومها كسابقه .
وفي اليوم الثالث كانت على موعد مع رسالة جديدة (عندما أراك في العمل .. ترن أجراس الأمل .. يا من بروحي تسكنين .. قلبي بحبك قد ثمل .. مع حبي)
- -الموضوع ده معدتش يتسكت عليه- .. ولم تنتظر رد أختها فقررت الاتصال بالرقم فقد زاد الأمر عن حده ولن ينفع معه السكوت .. أزاحت هاتفها جانبًا وأمسكت بهاتف شقيقتها وطلبت الرقم فوجدته - كما توقعت - مغلقًا .
إذن فقد اشترى هذا الخط ليعبث بها فقط .. ما الذي يفيده من إرسال رسالة لها كل صباح .. لماذا لا يتقدم للتعرف عليها مباشرة ويعطيها الفرصة للتعرف عليه .. فربما يروقها بل وربما تبادله حبه بحب .. لماذا لا يستطيع أن يمضي في الأمر كما يمضي غيره .. إنها لا تنكر المشاعر الجميلة التي تعايشها وهي تقرأ رسائله التي تشعرها بنسيم صباحها، و كأنها همسات حانية تربت على قلبها و تهدهد روحها، ولكن هذا الشعور لا يكفي فهي تريد ما هو أكثر من ذلك .. تريد أن تعرف من هو صاحب تلك الهمسات، وماذا يقصد منها وهي تعتقد أن ذلك من حقها .
انتبهت وهي تعيد قراءة الرسالة مرة أخرى .. إنه يقول أنه يراها في العمل . . إذن فهو يعمل معها في نفس الشركة .. من هو يا ترى ؟.. أخذ عقلها يتنقل بين الموظفين ويبحث عمن يمكن أن يكون الحبيب المجهول .. الأستاذ عبده ؟ . . لا يمكن .. الأستاذ حسام .. لا فهو خاطب .. الأستاذ متولي .. لا فزوجته تجلس دومًا بجواره,

---

ثم إن أيًا من هؤلاء ولا غيرهم يمكن أن يمتلك هذا الإحساس الراقي الذي كتبت به تلك الرسائل .
لم تستطع أن تحيا هذا اليوم كسابقيه فقد أمضت جل وقتها في التطلع في وجوه الموظفين حتى أحست في نهاية اليوم بالصداع يكاد يفتت رأسها من كثرة تنقل بصرها وفكرها بينهم .
وبعدما ذهبت إلى البيت أمضت باقي اليوم في القلق والترقب وفي محاولة الاتصال بهذا الرقم ولكن دون جدوى فالهاتف مازال مغلقًا .
في الصباح التالي كانت همسة جديدة ورسالة أخرى فتحتها فإذا هي (لعن الله هذا الصداع .. الذي استوطن رأسك وشاع .. وتمنياتي لك بطول البقاء .. ورغد العيش وحسن المتاع)
إلى هذه الدرجة قد وصل الأمر ..... إلى هذه الدرجة هو قريب مني .... من يا ترى هذا الرجل وما الذي يريده مني ؟
أخذت الأسئلة تتعدد وتتكاثر في رأسها .. فكرت ألا تذهب إلى العمل وتعرف ماذا سيحدث لكنها عدلت عن الفكرة فلديها الكثير من العمل المطلوب إنجازه، وبالتالي ففكرة الإجازة سوف تقابل بالرفض .
ذهبت إلى عملها وقررت ألا تعطي للأمر بالًا - ولو مؤقتًا - حتى تنتهي من الأعمال الموكلة إليها .
وفي اليوم التالي وصلت رسالة أخرى، ثم رسالة تالية في اليوم الذي يليه، وتعددت الرسائل وتنوعت كلمات الغزل والحب، وكلما مر يوم شعرت بالشوق يزداد بقلبها للتعرف إلى صاحب تلك الرسائل التي أصبحت لا تستطيع أن تبدأ يومها إلا بعد أن تقرأها .
حتى أيام الجمع والإجازات كانت تحمل رسائل زاخرة بكلمات الشوق تجعلها تتمنى أن تلغى جميع هذه الإجازات، حتى لا يشعر ذلك المحب الولهان بهذا الشوق الذي يكاد أن يقضي عليه . وبعد أيام كثيرة استيقظت ذات يوم وأمسكت بهاتفها وتطلعت إليه فلم تجد الرسالة .. ما هذا ؟.. سألت نفسها .. أتراه قد كف عن حبي .. أو أصابه أمر ما .. ماذا أفعل وكيف أتصرف ؟ .

كان القلق يعتريها طوال اليوم، والمشكلة أنها لم تكن تعلم على من تقلق .. وكيف تقلق على من ليس له وجود أمامها ولا تعرفه .. لم تستطع أن تبرر عصبيتها لمن حولها في العمل ولا عزوفها عن الطعام في البيت .

أوت إلى فراشها في المساء وهي تتمنى من الله ألا يصيبه مكروه .. أيا كان من هو .. وأيا كان ما أصابه فهي تحبه حتى لو لم تعرفه .

في الصباح التالي استيقظت من نومها على رنين هاتفها المتواصل ... ما هذا ؟.. إنه نفس الرقم . ردت بسرعة

- -آلو ...؟؟-

ورد الطرف الآخر:.

- -آنسة داليا ... أنا خلاص معدتش قادر استحمل أكتر من كده .. أنا محمود سلطان موظف الحسابات في الشركة .. تقبلي تتجوزيني ؟-

استحضرت صورة هذا المتحدث وملامحه وأخلاقه فاستنكرت على نفسها أنها لم تفكر فيه .. إنه الوحيد الذي يمكن أن يمتلك هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ولما تيقنت من قبولها له قالت وهي تتنهد :.

- -يا أخي أنا اللي ماعدتش قادرة استحمل هتيجي تقابل بابا امتى ؟-

وهكذا انتهت سعادتها برسائل الصباح وانتهى شغفه بالكتابة .. حتى الديوان الذي كان جاهزًا للنشر داس عليه الزمن وأخفته الأيام .

زوج الأم

وقفت على الشاطئ في مواجهة أمواج البحر وقالت في نفسها لماذا الآن ؟.. والآن بالذات ؟

إنها لا تتذكر أنه قد عنفها أو قسى عليها في يوم من الأيام أو حط من شأنها أو من كرامتها .. إنه - حتى بعد أن أنجبت والدتها أختها علا - كان يعاملها مثلما يعامل أي أب ابنته. لا يوبخها إلا لسبب ولا يعنفها إلا لمصلحتها .. دائمًا ما يحنو عليها ويطيب خاطرها ويكفكف دمعها فلماذا تغير الآن ؟.. نظرت إلى البحر وسألته عن سبب هذا التغيير المفاجئ في معاملته لها .. إنها لم تشعر به يومًا زوجًا لوالدتها لم تشعر كما يشعر أقرانها بعد انفصال آباءهم وأمهاتهم بهذا الشعور السخيف من الضياع والمذلة، بل إن كثيرًا من زملاءها كانوا يعرفون هذا الرجل بأنه والدها وليس عمها كما تناديه. كانت تستشيره في كل شيء وكانت تحكي له ما لا يمكن أن تحكيه لوالدتها . وكان ينصحها - كأي أب - بخير نصح .. كانت تحكي له عن قصص غرامها وشغفها بهذا أو ذاك وكان يشدها هدوءه وثقته فيها واستماعه إليها في صبر وأناة . ثم آراؤه السليمة التي لا يستعجل نتائجها حتى تجد نفسها رويدًا رويدًا قد اقتنعت بما قال وعدلت عن الطريق الذي كانت تسير فيه .

كان ذلك فيما سبق .. لكن هذه المرة فآرائه لم تنفع ولم يُجدِ هدوءه في إثناءها عما تريد .. ذلك الذي دخل حياتها وكمن في ركن من قلبها وظل يستولي على بقية فؤادها حتى أصبح مسيطرًا على حياتها وشاغلًا تفكيرها بدون أن تدرك .

لم تقص على عمها من ذلك شيء . لأنها بكل بساطة لم تعتقد ولم يخطر في بالها أن شيئًا قد حدث أو سيحدث .

بدأ الأمر بلقاء عابر في نفس المكان الذي تقف فيه الآن .. كانت مع أختها وبصحبتهما بعض الصديقات، فاقترب منهن وسلم عليهن، وقدمته إحداهن على أنه شقيقها وبعد يومين جمعتهما الصدفة به في إحدى الندوات الشعرية، ثم تقابلا مرة أخرى في حفل زفاف إحدى زميلاتها .. في كل مرة كان الكلام يزيد بينهما عن المرة السابقة وكان الحديث يطول ويتشعب إلى أن وجدت نفسها - رغمًا عنها - تفكر فيه ليل نهار وأحست بأبواب قلبها قد انفتحت لترحب به - وهنا - وهنا فقط - بدأت في الكلام عنه مع عمها واستمع الرجل وأنصت .
ولكنها أحست منه بأمر غريب إنه - ولأول مرة - يسخر من تفكيرها ويهزأ برأيها.
إنه - ولأول مرة - لا ينصحها بل يعنفها ويكاد أن يشتمها .. تساءلت ماذا جرى .. نظرت إلى البحر وكأنها تستجدي منه الإجابة .. قالت مخاطبة إياه :.
- -قل لى يا بحر ماذا أفعل ؟.. لقد كنت شاهدًا على هذا الأمر من مبتدأه ... تقابلت أول مرة معه أمامك .. تحدثت مع عمي عنه أمامك .. صارحني برغبته في الزواج بي أمامك .. عنفتني أختي علا على هذا الحب أمامك .. قالت بأنه لا يستطيع إسعادي وأن غرضه مني هو التسلي بي وقضاء وقت ممتع معي .. قبلني لأول مرة أمامك.. لقد كنت تنظر إلى كل هذا. وأحسست بك تشاركني فرحتي وتقوي من عزيمتي في مواجهة زوج والدتي وأختي ولكن ما لي أراك اليوم عابسًا لا تشاركني الرأي ولا تعطيني النصيحة ؟.. لأول مرة أراك ضدي يا بحر. .. ماذا حدث ؟؟-
وصرخت من داخلها: - ماذا حدث ؟!!
ورد عليها البحر ردًا موجعًا آلمها وأحزنها وأهانها في وقت واحد ...
فقد رأتهما معًا يخرجان من خلف إحدى الصخور مشتبكي اليدين باسمي الثغرين في قمة الانسجام .. حبيبها ... وأختها.

صديقي

نظر إلى البحر وتنهد وقال كأنه يتكلم مع شخص آخر .. أين أنت الآن ياعمر ؟ كان بالأمس القريب هنا يشاركه جلسته أمام الماء و يجري معه من ملاحقة الأمواج ويستقبل معه الهواء المحمل بالملح ...
لم يمر على آخر جلسة لهما معًا سوى أسبوع لكنه مر على وحيد كأنه سنة أو يزيد .. لقد اختار الرحيل وحق له أن يختاره .. قال له في آخر جلسة لهما معًا . . ماذا أنتظر ؟! .. ماذا يمكن أن أفعل في هذا البلد ؟ أنت تعلم أن الشهادة التي قضيت السنوات في الحصول عليها لا يحملها الكثير. وبالرغم من ذلك ارتضيت أن أعمل فران وبقال ومبيض محارة لعدم استطاعتي أن أجد عمل بشهادتي .
والآن وبعد ثلاث سنوات من المعاناة، واتتني الفرصة وأرسلوا لي كي أكمل تعليمي في فرنسا .. لقد عايشت معي يا وحيد بحثي على الإنترنت بين العديد من جامعات العالم فكيف أرفض عرضًا كهذا ؟.. لقد تكفلوا بجميع مصاريف دراستي وسوف أبحث هناك عن عمل لأتقوت منه ولأعيش من خلاله، ثم أعود بعد أن أكون إنسان آخر .. وحتى لو لم أعد ماذا سيحدث ؟
أغرقت عيناه الدموع مرة أخرى وهو يتذكر كيف كان يرجوه لكي لا يرحل وأن ينتظر لعله يجد عملًا في أحد معامل الأبحاث التي تقدم إليها أو حتى يكمل دراسته هنا في البلد .
تذكر نظرته المستنكرة وهو يقول ..وماذا أكون ؟.. حامل ماجستير في الصباح وصبي فران في المساء ... ثم ماذا بعد ذلك ؟.. أتعتقد أنهم يمكن أن يعينوا معيد في الجامعة يعمل أبوه فراش في الصحة ؟
أتعتقد أنهم يأبهون لسنوات الشقاء التي عشتها أنا وعائلتي حتى أحصل على

تلك الشهادة التي لا يحملها سواي أنا وابنة عميد الكلية ؟ .. أتعتقد أنهم يرحبون بتعييني معيدًا بالكلية ويتركوا ابنة العميد فقط لأن تقديري أفضل من تقديرها ؟ .. ثم ختم أسئلته بسخريته المعتادة أنت في مصر يا صاحبي .. ونحن لسنا من أهل المناصب فيها.

لم يشعر بموج البحر وهو يخترق حذاءه ويصيب ملابسه وجسده بالبلل، وإنما كل ما فعله هو أن نظر إلى البحر وقال كأنما يخاطب صاحبه : وأنا ؟

وتذكر كلماته :

- أنت تعلم أن هذه هي المرة الثانية التي تواتيني فيها هذه الفرصة، وقد رفضتها في المرة الأولى لعدم قدرتي على الحياة في الغربة بدونك إنما الآن فأنا وأنت نملك جهاز كمبيوتر سوف يكون لك حساب على (skype) وسوف أحدثك كل يوم ولن تشعر أنك وحدك ولن أشعر بالوحدة في الغربة طالما أنت معي .

ثم نظر إليه وقد ترقرق الدمع في عينيه وهو يقول :

- -سأشتاق كثيرًا لجلستي معك أمام هذا البحر -.

أعاد النظر إلى البحر مرة أخرى وارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة وهو يتذكر أنه قد مر أسبوع منذ رحيل عمر لكنه لم يتحدث معه حتى الآن، بالرغم من أنه أنشأ له حساب على (skype) وعلمه كيفية تركيب الكاميرا على الجهاز وتشغيله، ولكن إلى الآن لا يعرف أي خبر عنه، ويكاد القلق أن يقضي عليه فهذه أطول مدة منذ أن تعرف إلى صديقه يبتعد فيها عنه .

شعر بالإحباط كما لم يشعر به من قبل، وأحس بالبحر يشاركه إحباطه، وكاد بكاؤه أن يرتفع لولا أن رن هاتفه، وعندما نظر إلى رقم المتصل وجد أنه يبدأ بكود فرنسا .. رد في لهفة على الاتصال ليجد صوت عمر يقول :- -اشتقت إليك كثيرًا يا وحيد . -

وثانية أغرقت عيناه الدموع ولكن هذه المرة فرحًا بصاحبه .

رسالة

بالرغم من أن صوت الرسالة كان منخفضًا، وبالرغم من أنه قد شاهد عقارب الساعة قد جاوزت الثانية صباحًا قبل أن تغفل عيناه، وبالرغم من نومه الثقيل إلا أنه استيقظ على الصوت ... نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط المقابل للسرير فوجدها لم تتجاوز الرابعة فجرًا . تسائل بينه وبين نفسه عن هذه الرسالة التي أتت في وقت غير مناسب ... انتابه الفضول لمعرفة مرسل الرسالة وفحواها ... نظر إلى الهاتف وهو نصف نائم وما أن أبصرت عيناه اسم المرسل حتى استيقظت كل حواسه وانتبهت كل جوارحه وهب من فراشه واقفًا .. إنها من أماني ... يا ترى ماذا تريد ؟ فتح الرسالة (بحبك يا ولا) كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما من شدة الفرح ... بتحبني .. معقول...!! أخيرًا ..! كان الكلام ينساب بداخله بسرعة وهو لا يدري ماذا يفعل .. نظر إلى الفراش كأنما ليتأكد أنه مستيقظ وليس نائمًا ونظر إلى زوجته التي تغط في نومها العميق غير مبالية بما يحدث.

انسحب إلى الغرفة الأخرى في هدوء وهو يحاول أن يجمع شتات فكره ويسيطر على زمام نفسه .. جلس على الأريكة وهو يفكر فيما يجب عليه أن يفعل ... أخيرًا استجابت لما يجيش به صدره .. أخيرًا قبلت به كحبيب وليس كابن عم .. نظر إلى الرسالة مرة أخرى ... -بحبك يا ولا- .. إنه لم يسمح لأحد بأن يناديه بهذا اللفظ إلا هي . كان يغضب كثيرًا إذا ناداه والده بهذه الكلمة فلم يكن يحبها على الإطلاق . كان يشعر بأنها تحط من قدره وكرامته أما عندما تنطق هي بها فكأنه يرفرف في السماء .. كأنها زقزقة العصافير وهديل الحمام .. كان يستمتع بهذا اللفظ حينما يخرج من شفتيها وها هو يستمتع وهو يقرأه في رسالتها .

جلس يسترجع المواقف المتتالية التي عبر لها فيها عن حبه بمختلف الوسائل والأساليب، ويتذكر ردودها المتوالية عليه .. -ياعمرو إحنا اخوات- .. -يا ريت تخلينا أصدقاء أحسن- ... -أنا عمري ما هلاقي أخ أحن ولا أعز منك- .
كان ينهي معها الحديث كل مرة ثم يعاود الكرة في المقابلة التالية، وهي كما هي لم تغير رأيها ولم تبدله .
زاد من محبتها في قلبه أنه لم يجد منها يومًا ما يضايقه فهي - وبالرغم من عدم رضاها عن حبه لها - لم تقل يومًا ما يزعجه، ولم تصده يومًا بما يصرفه عنها وإنما كان حديثها - برغم قسوته على قلبه - ممتعًا ورائقًا .. كان يلتمس لها العذر دائمًا في كل ما تقول فهو متزوج والدخول في علاقة من هذا النوع معه سوف يؤدي إلى انقسامات في العائلة التي لم يكد جرحها يندمل بعد .. كما إنه سيجلب العديد من المشاكل التي لا قبل لأحد بها، ولكن ماذا كان يجب أن يفعل وهذا الزواج قد فرض عليه قسرًا لتدعيم أواصر المحبة بين والده وشريكه في العمل قبل أن تنفض أواصر الشراكة بوفاة ذلك الشريك .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فعلاقته بأماني - بالرغم من أنها ابنة عمه - علاقة حديثة وذلك لأنه لم يكن هناك اختلاط بين والده وشقيقه - والد أماني - فيما قبل فقد فرقت بينهما قديمًا خلافات الميراث، ولم يتصالحا ويتصافيا إلا منذ سنوات قليلة مما قرب بينه وبينها .
كان تفكيره فيها يفوق الوصف وكان يتمنى الارتباط بها .. لا يعرف كيف إلا أن تلك الأمنية كانت تسيطر على كل مجريات حياته .. لقد شك أكثر من مرة أن في حياتها غيره لكنها - وربما حرصًا منها على أن لا تجرحه - لم تلمح له بشئ من هذا القبيل بل وكانت تنكره إذا تكلم هو عنه .. أما اليوم . فها هي تحيي آمالًا قد ماتت وتهب الراحة لقلب قد أضناه الشوق وروح قد أنهكها السهر .
جلس يفكر فيما يجب عليه أن يفعل .. جال في خاطره أن يهاتفها لكنه تراجع عن تلك الفكرة لما فيها من تبعات بإيقاظ زوجته مما سيجلب عليه المتاعب .. . إذن فليبعث لها برسالة مماثلة يخبرها فيها عن فرحته برسالتها وسعادته بها .. كتب الرسالة وضغط على زر الإرسال فجاء الرد على شاشة الهاتف .. فشل

الإرسال حاول مرة ثانية ... -أخ- ... خبط على رأسه وهو يتذكر أن رصيده قد نفذ وأنه لم يشحن الهاتف وأجل هذا الأمر إلى الصباح .
لم يجد أمامه إلا أن ينتظر الصباح، وأن يذهب إليها بعد انتهاء عمله ثم يحدثها بما يريد .
ظل مستيقظًا حتى الصباح وشرب كوبًا كبيرًا من القهوة قبل أن يذهب إلى عمله، وقبل أن يجلس إلى مكتبه رن هاتفه ... إنها هي ... شعر بالفرحة تغمر كيانه وبالخجل يملأ نفسه من كونه لم يتصل بها وانتظر أن تتصل به هي ... رد على الهاتف
- -صباح الخير يا أماني- .
قالت : -صباح الخير ياعمرو .. معلش أنا بعت لك امبارح رسالة بالغلط .. أنا آسفة-.
ثم أنهت المكالمة في الوقت الذي انهار فيه فوق مكتبه وشبك بين يديه على المكتب وما هي إلا لحظات حتى كاد غطيطه أن يرج الجدران .

فـــــــــرح

كان الأمر بالفعل يبدو غريبًا وشاذًا وغير مألوف على الإطلاق، إلا أن ذلك كله لم يمنعه من المضي فيما اعتزمه .. لم يهتم بمن حوله وكأنه كان وحيدًا على الشاطئ .. لم يبال بالدهشة البادية على الوجوه ولا الاستنكار الذي تنطق به العيون . . كأن الدنيا قد خلت من كل ما فيها وكل من فيها إلا هو والبحر .. تناسى أن ذلك هو حفل زفاف ابن عمه .. تناسى أنه صاحب فكرة أن يقام الحفل على الشاطئ .. تناسى أن معظم المدعوين من أكابر القوم ومن ذوي المراكز المرموقة في المجتمع .. تناسى كل شيء ولم يتذكر إلا همومه .. وقف يخلع كل جزء من ملابسه ويزيح معها هما من همومه .. أزاح هم القضايا والمحاضر التي أقامتها ضده زوجته . تلك الزوجة التي كانت في يوم من الأيام هي كل حياته وأغلى وأعز الناس لديه . والتي أصبحت اليوم أبعد ما يكون عن تلك الصورة التي كانت عليها قبلًا . وذلك بلا جريرة ارتكبها اللهم عدم قبوله للانقياد تحت لواء والدتها مثل بقية أزواج بناتها .

أزاح وهو يخلع عنه بنطاله مشاكله في العمل وتحرش ابنة صاحب المصنع الدائم به ومحاولاتها المتعددة بالتقرب منه والتودد إليه برغم كونها متزوجة من رجل يشهد له الجميع بالاحترام .

أزاح الحقد الذي تمكن من قلبه وهو يدخل إلى الفرح تجاه ابن عمه .. هذا الحقد الذي زادته تلك الفخامة وهذه الأبهة التي عليها الحفل .. ابن عمه الذي كان يفكر في حفل يتحدث عنه القاصي والداني وعندما عرض عليه الأمر قال باستخفاف : - -خلاص إعمله ع الشط-

وبرغم عدم معقولية الفكرة إلا أن ابن عمه لم يكن يمنعه من تنفيذها شيء

فأموال والده لن تجعل شيئًا يقف في وجهه .. وبالفعل قام بتأجير الشاطئ بكل ما عليه وها هو الحفل يتحدث عنه الجميع .
وفي النهاية أزاح من رأسه شغفه بهذه الفتاة التي لم يحب أحدًا مثلما أحبها، والتي كان يتمنى لو انتظرت ليفرغ من القضايا التي بينه وبين زوجته حتى يتزوجها . والتي تجلس اليوم في)الكوشة(بجوار ابن عمه.
وبعد أن خلع ملابسه ولم يبق عليه إلا ما يستر عورته مضى في الماء متجاهلًا استعطاف والدته وبكاء شقيقاته متحديًا خوفه من نزول الماء في المساء .. وبعد أن سار قليلًا في الماء نظر إلى السماء وصرخ بأعلى صوته وكأنه ينادي على حلم بعيد أو يهرب من هم قريب ثم غطس في الماء .. وكأنما ألقى بكل ما يتأذى منه بين ذراعي البحر .
الغريب في الأمر أنه عندما غاص قليلًا في الماء ثم أخرج رأسه ونظر في اتجاه الشاطئ كان كثير ممن في الحفل قد بدأوا يفعلوا كما فعل وما هي إلا دقائق حتى انقسم الحفل قسمين . قسم على الشاطئ وقسم في الماء .

عفوًا لقد نفذ رصيدكم

عندما عادت إلى المنزل كان الإرهاق قد أخذ منها مأخذه ... فتحت الباب وتوجهت إلى غرفتها مباشرة غير عابئة بنظرات والدتها التي كاد القلق أن يقضي عليها لتأخرها في عملها حتى هذه الساعة ... ردت على كل تساؤلاتها بجملة واحدة :

- -أنا تعبانة يا ماما وعاوزة أنام .. لما أقوم من النوم نتكلم- .

أغلقت باب غرفتها بالمفتاح من الداخل حتى تريح نفسها من إلحاح والدتها، وبدلت ملابسها وجلست على الكرسي المواجه للمرآة فطالعت فيها صفحة وجهها وأخذت تفكر فيما وصل إليه حالها وما أصابها من هذه العلاقة المحكوم عليها بالفشل ... أقسمت ألا تعود إليه مرة أخرى .... لن تنخدع بكلامه المعسول ولا اعتذاراته الكاذبة .... لن تنتظر أن يخدعها ثانية بأوهام طالما صدقتها بالرغم من تأكدها من كذبها.

لقد أخبرته أكثر من مرة أن له رصيد من السماح في قلبها، وقد أوشك هذا الرصيد على النفاذ من كثرة أخطاءه، وطول إهماله، وإذا نفذ هذا الرصيد فلن يجد من يلومه إلا نفسه، فهي لن تكون ساعتها في حياته ولن يكون في حياتها . نعم هي أدخلته في حياتها برغبتها وبملئ إرادتها .. لم يجبرها أحد على معرفته أو الاهتمام به .... لا تتذكر الآن ما الذي جذبها إليه .. مظهره الواثق .. كلامه المنظم ... حضوره القوي في كثير من المشكلات والأحداث .... لم يعد ذلك مهما . . لكن الذي تتذكره أن معرفتها به كانت محض صدفة شاء القدر أن تتكرر، وأن تتطور العلاقة بينهما إلى أن تصبح إعجاب متبادل - ربما هذا ما اعتقدته - ولم يلبث هذا الإعجاب أن أصبح حبًا وكان لهذا الحب أن يتطور ويصبح ارتباط ...

إلى هنا وقد كانت تشعر بتطابق الآراء وتلاقي المشاعر و إنهما سيكملان الطريق الذي بدآه معًا إلا أنه نكث عن ذلك و كأنه لا علاقة له بها و لم يربطهما الحب يومًا معًا .... كانت طريقته في التهرب منها رائعة إلى أقصى حد ... كانت تستمع إلى اعتذاراته وتدرك كذبه فيما يقول إلا أن قلبها كان يأبى إلا أن يصدقه .
كان يقدم لها أسباب واهية لا يمكن لأي عقل أن يستوعبها لكنها كانت تصدقها.
كانت تعرف أنها مريضة بحبه، وهي سعيدة بهذا المرض، ولا تريد أن تبرأ منه، فقد كانت حياتها في هذا المرض وشفاؤها منه لا يعني إلا موتها، وهي لا تريد أن تموت ليس خوفًا من الموت ولكن لأن الموت سوف يحرمها من رؤيته .
عندما تنظر إلى الوراء الآن تجد أنها كانت لعبة بين يديه، يتحول عنها إذا راقت له غيرها وبجذبة من يده - بل وربما بكلمة من شفتيه - تعود كما كانت تحت تصرفه .
الآن لم يعد الأمر كما كان ولن يعود، فهي قد ملت الأحاديث وملت حياة الأوهام ... فكرت أنها بعد هذه السنوات وبعد هذا الإذلال آن لها أن تعود إلى الحياة من جديد، وأن تجعل قصتها معه ككوب ماء أتاها وهي في قمة عطشها وما لبثت أن ارتشفت قليلًا منه حتى وقع وانكسر وأُريق ماؤه على الأرض ... نعم هي ما تزال عطشى لكن لابد أن لها من الماء نصيبًا في كوب آخر .
إنها بلا شك تستحق من هو أفضل منه، وسوف يأتي لا محالة فالله أخبر بأن مع العسر يسرا، وهذا العسر الذي أصابها سوف يبدله الله بيسر، بأن يأتي من يسعد له قلبها وترتاح به روحها ... من يحافظ عليها ويحقق أحلامها .
تمددت في الفراش وكانت آخر أمانيها قبل أن يدركها النوم أن يزورها في المنام لتخبره بأنه لم يعد الأفضل .... ولن يكون كذلك .

ليلة

عاد إلى بيته متأخرًا منتشيًا بتلك السهرة التي لم يقض مثيلًا لها من قبل ... استلقى في فراشه ولم يعبأ بغطيط زوجته الذي يملأ المكان وراح يفكر في تلك المتع التي كان يحرم نفسه منها طيلة تلك السنوات.. لام نفسه لأنه لم يكن يسمع كلام أصدقاؤه ولم يلب دعواتهم وقد كلت ألسنتهم وضجت قلوبهم من محايلته كي يذهب معهم .

حقًا لقد قضى ليلة من أسعد ليال حياته بل ربما تكون أسعدها على الإطلاق، فمن منادمة للخمر لرقص بجميع الأشكال للعب الورق لقبلات وأحضان وأهات لا تنتهي لمختلف النساء ... حتى الحشيش الذي كان يدخنه - وبرغم كونه محاميًا - لم يتذوق مثله من قبل ... باختصار كانت الليلة بكل ما فيها فوق الوصف .

- -أنت جيت يا يوسف ؟ -

أخرجته كلمات زوجته النصف نائمة من أفكاره فقال لها دون أن ينظر إليها : -أيوة جيت يا منى -.

قالت وقد بدأت تستفيق : -إيه اللي أخرك كده؟ ... أنا كنت قلقانة عليك واتصلت بيك لقيت موبايلك مقفول-.

- -أبدًا كان فيه مشكلة عند موكل وكنت معاه في القسم- . ... ولم يكمل كلامه لأنها عادت من جديد تغط في نومها وكأنه لا يتكلم .

نعم هذه زوجته ... طالما أنه كان في القسم - أي في العمل - فلا شيء يهم .. أما أن يكون جالسًا على إحدى المقاهي مع بعض الأصدقاء، أو يقضي بعض الوقت في السينما بعد يوم عمل طويل ومضن فهذا ليس من حقه .

إنه يوافق على ألا يذهب إلى السينما ولا يرتاد المقاهي ولا يذهب إلى مثل تلك السهرات مرة أخرى ..
إنه يوافق على أن ينهي مكتبه ثم يعود فورًا إلى البيت ولكن لماذا يفعل ذلك ؟ .. ليلتقي بنفس البرنامج اليومي الذي لم يتغير منذ خمسة عشر عامًا .. -أنا تعبانة طول النهار في البيت- ... -المدرسة بتشتكي من محمود وبتقول إنه مابيذاكرش- .. -بكره وفاء أختي هتعدي عليا وهنروح نشتري شوية حاجات- .. -فريدة بنتك عايزة تطلع رحلة مع المدرسة- ... وهكذا وهكذا ...
إنه لا يمانع في حل مشاكل أبناءه، ولا يمانع في حل مشاكلها، ولكن أن يبقى دائمًا يمثل دور المستمع فهذا ما لا يقبله ... أن يبقى هو من يقدم الحلول لتُلقى في سلة المهملات فهذا ما لا يطيقه .. إنه يعرف أن الذي يتكلم مع أحد في مشكلة فهو يتكلم معه ليفيده برأيه في حلها أما أن يأخذ كلامه ويضرب به عرض الحائط فهذا ما لا يصح .
كما أنه لا يستطيع أن يفضي إلى تلك الزوجة بما يقابله من مشكلات، لأنها بكل بساطة لا تعتبر هذه التفاهات من الأمور التي تحتاج إلى حل .. ثم إنه كزوج يريد - عندما يعود إلى بيته - أن يكون له نصيبًا من الحب ودفئ المشاعر، يحصل عليه كمكافأة له على كده وتعبه طوال النهار والليل، وهذا أيضًا ما لا يجده إلا نادرًا، وقد جرب ذلك آلاف المرات ولذلك فهو غير نادم على ما قام به .
تناهى إلى سمعه سعال ابنه محمود من الغرفة الأخرى، فقام من فوره إليه وتناول كوب الماء من فوق الكمودينو المجاور لسريره وسقاه فقال له الولد وهو يغالب النعاس: -شكرًا يا بابا- .
-بابا- .. رددها خلفه وهو يفكر فيما لو يعلم ابنه ما يتحمله لكي يسمع منه هذه الكلمة .. قام وأحكم الغطاء على ابنته فريدة وقبلها ثم عاد إلى سرير محمود مرة أخرى وهو يقول: -ممكن أنام جنبك ياحودة ؟-
فتزحزح الولد قليلًا حتى يستوعبهما السرير، وما أن أحس كل منهما بحنان الآخر حتى غلبهما النوم .

ماذا تفعل لو كنت مكاني

كنت - كعادتي - أستعد للذهاب إلى عملي ... وأثناء اتجاهي إلى باب شقتي لأعبره فوجئت بجرس الباب يئن تحت وطأة اليد التي تضغط عليه بغير انقطاع، مع طرق حاد ومتواصل على باب الشقة مما ذكرني بأفلام الستينيات عندما كان أفراد الأمن يدقون على الأبواب بهذه الطريقة .

وبرغم معرفتي باتجاه عقارب الساعة إلا أني وجدتني - رغمًا عني - أنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط لأتأكد أنها مازالت السابعة والنصف، وهو وقت لا أعتقد أن أحدًا قد تجرأ وزارني فيه من قبل .

وبالطبع لم يكن لدي المتسع من الوقت لأفكر في هذا الأمر، خاصة وأن زوجتي عند والدتها منذ يومين بعد افتعال إحدى مشاجراتها التي لا تنتهي ولا أمل في أن تنتهي - كما لم يكن في خاطري أن أتوقع من هذا الزائر - الذي ولابد أنه غير مرغوب فيه - الذي ينشغل خاطره بزيارة الناس في هذا الوقت المبكر، ولكن كل ما كان يشغل خاطري في الثواني التي كنت أتجه فيها إلى الباب هو الطريقة المستفزة التي يدق بها جرس الباب ودلفتيه . وأكننت في نفسي أن هذا الأمر لن يمر على خير - أيًا كان هذا الشخص - فلم يكن لأحد - مهما كان - أن يتسبب بإزعاجي وانزعاجي في هذه الساعة من ساعات الصباح .

المهم أني في النهاية قد اتخذت القرار الطبيعي بفتح الباب .. ولا أدري لماذا انتابتني تلك الرجفة وأنا أمسك بمقبض الباب . ولكن المهم أني فتحت الباب . . نعم فتحت الباب – ويا ليتني ما فتحت - فلقد وجدت مظاهرة على الباب مكونة من زوجتي ووالدتها ممسكتين بنوال -جارتنا التي تسكن الدور الرابع- التي كانت تقضي ليلتها معي و لم تصعد لشقتها إلا قرب الفجر.

موضوع معقد

كان الجو هادئًا تمامًا، والأمور تسير على ما يرام، وما هي إلا دقائق حتى ينتهي كل شيء بالنهاية التي تريح الجميع ثم فجأة تكهرب الجو ... كان حجم التوسلات التي بذلت في سبيل إتمام الأمر وحتى يأتي حمدي بصحبة والده إلى هذا البيت. وكيف أنه استهلك كل الوسائل والأساليب حتى يقنع والديه بهذا الزواج وبأنه سيحقق له أعلى درجات السعادة .

نرجع إلى بداية الأمر عندما ذهب حمدي إلى والدته ليخبرها بأنه يرغب بالزواج من إحدى الفتيات، وعندما سألته عنها أخبرها بأنها الثالثة على كلية التجارة واسمها نهى وظل يعدد الصفات الحميدة التي تتمتع بها نهى حتى لا تسأله والدته عن السؤال الذي لا يعرف كيف يتهرب منه ولكن أنى له ذلك ... سألته أمه عن العائلة هل من المعارف أم بنت أحد أصدقاء والده أو لعلها بنت أحد الوزراء أو أحد رجال الأعمال .. كان كل ما يدور في خيال الأم أن نهى سليلة إحدى الأسر الكريمة وبالطبع نزل الخبر عليها كالصاعقة عندما علمت أن نهى ما هي إلا بنت بائع خضار .

بائع خضار ! .. رنت الكلمة في أذنها ولم تصدقها أو بمعنى أدق رفضت تصديقها أو أعجزت الصدمة لسانها عن النطق .. لم يحدث يومًا أن أيًا من أفراد عائلتها من أقصاها إلى أقصاها تزوج من ابنة موظف بسيط، ولم يحدث يومًا أن أيًا من أفراد عائلة زوجها تزوج من ابنة موظف سواء كان بسيطًا أو هامًا .. بصعوبة بالغة استطاعت تنطق فقالت :.

- -يا حمدي أنت ابن أكبر تاجر سيارات في مصر وأقل واحد بيقعد مع أبوك وكيل وزارة . إزاي عايز تتجوز بنت بياع خضار وعايزني أنا أقنع أبوك بكده ..

يعني هو ذنبه إنه طاوعك وخلاك تكمل تعليمك في مصر ؟-
لم ييأس حمدي بل ترك أمه لتهدأ وأعاد عليها الكرة مرة أخرى ومرة أخرى وأخرى حتى بدأت والدته تلين وتوافق أن تقابل نهى في أحد النوادي مع العلم بأن هذه المقابلة لا تعني أي شيء، ولا تعتبر وعدًا بأي شيء .
وتمت المقابلة وعلى غير المتوقع كان لها أثر السحر على نفس الأم، ولم تدر ما سر هذه الراحة التي أحست بها بعد هذا اللقاء، وما الذي قدمته نهى إليها لتكسب ودها بهذه الصورة بل وتجعلها توافق على الزواج .
إلى هنا والأمور ما تزال تسير على ما يرام، ولكن بقيت الصعوبات التي تعترض الطريق وأول هذه الصعوبات هو إقناع الأب بالموافقة على الزواج، وهو أمر ليس باليسير فكيف تقنع هذه السيدة زوجها بأن يترك قصره المنيف ويذهب إلى دار صغيرة في حارة من داخل حارة في حي لم يسمع الوالد به من قبل، بل كيف يرضى بأن يتزوج ابنه الوحيد من ابنة بائع خضار، وكيف يقبل بأن يدنس شجرة العائلة بتلك الورقة التي يريد ابنه إضافتها للشجرة .
حاول حمدي وحاولت والدته وكان الأمر عسير إلى درجة لم يكونا يتخيلانها، وبالمثابرة وتنوع الأساليب وبعد جهد جهيد من كليهما لم يجد الأب أمامه إلا أن يوافق مبدئيًا على مقابلة والد نهى في مقر شركته، ثم يرى ماذا سيحدث بعد ذلك .
ورفض والد نهى الأمر بشدة فابنته ليست للبيع لكي يذهب ليدلل عليها .. وعاد جميع الأطراف - نهى وحمدي ووالدته - إلى المحاولات والمداولات بل والمباحثات التي كللت في نهاية المطاف إلى الموافقة على إتمام اللقاء في إحدى الكافتيريات بالطريقة التي تناسب وضع والد حمدي ولا تحط من قدر والد نهى.
بعد اللقاء كان الجليد الذي تجمع في رأس والد حمدي قد بدأ في الذوبان، وما هي إلا أيام قليلة حتى كان قد اتخذ قرارًا بالموافقة على إتمام الزواج .
نأتي بعد ذلك للصعوبة الثانية فحمدي لم يخبر والده أين تسكن نهى وأسرتها - فهو نفسه لم يذهب إلى بيتها من قبل - لكي يتقدم معه لخطبتها، وهو أمر

في غاية الصعوبة فخريطة مصر التي تقبع في رأس والده ليس فيها محل لمثل هذه الأماكن، فكيف يريد منه بعد أن تعدت سنوات عمره الستين أن يرسم له خريطة جديدة .

ولأن الوالد لم يكن يتخيل مدى سوء الأمر، فقد كانت المحاولات معه بسيطة وغير معقدة فقد كان يتخيل أن مثل تلك الأماكن ليس لها مكان إلا على شاشات السينما، أما الواقع فلم يكن إطلاقًا بهذا السوء .. ووافق الرجل على إتمام الزيارة من باب (أهى زيارة وتعدي)

وبالطبع كان الأمر أسوأ مما توقع فبعد الانتقال من شارع إلى شارع استطاع الأب أن يوقف سيارته في آخر شارع ممكن أن تدخل فيه .. وأجبر ابنه على حمل ما أتيا به من هدايا للعروس وأهلها وحمل حمدي - الذي كادت ذراعاه أن تتيبسا - ما أتى به والده . ومن شارع إلى حارة إلى زقاق - حسب ما وصفت له نهى - حتى وصلا إلى البيت ... وفتحت لهما نهى الباب فأحس والد حمدي بأن المدخل المظلم قد أضئ بنور وجهها، وتبدل الاشمئزاز الذي كان يعتريه إلى سكينة وهدوء وأحس بالراحة إلى البنت فقرر - في سبيل إسعاد ابنه - أن يساعد على إتمام هذا الزواج .

ودخل إلى البيت وقابله والد نهى بالترحاب اللائق، فهو وإن كان بائع خضار إلا أن الواضح أنه يفهم في الذوق ويعرف الأصول، ودار الكلام بين الجميع في ود وصفاء جعلا والد حمدي ينسى أنه قد حدد وقتًا معينًا للزيارة .

فاتني أن أخبركم عن والدة نهى .. فقبل هذه الزيارة بقليل تم الاتفاق على أن تمكث الأم عند جارتهم سعاد وأن يذهب عادل شقيق نهى إلى المقهى حتى تنتهي تلك المقابلة .

وأثناء اللقاء وبعد أن حلا الحديث بين والد حمدي ووالد نهى، وبعد أن بدأ الجو في الصفاء تناهى إلى سمع الجميع ضوضاء قادمة من الشارع، وعندما خرجوا إلى مدخل البيت ليعرفوا ما يحدث كانت الفاجعة التي أصابت حمدي ووالده فقد كانت إحدى السيدات - التي تبين فيما بعد أنها والدة نهى - تمسك بشاب من تلابيبه - هذا الشاب هو عادل شقيق نهى - وتضربه بالشبشب وهي

تقول :.
- -بتعاكسني يا ابن الكلب ... أنا هوريك-
وبالطبع كان كل من في الحي - بما فيهم نهى ووالدها- يعلمون بهذه الحالة من الجنون التي تنتاب المرأة .. ولما زاد الأمر ولم يستطع أي من الجيران إنهاء المشهد فقد هرعت نهى إلى والدتها لتهدأ من روعها وتخلص عادل -الذي عجز الجميع عن تخليصه من يدها- وتأخذها إلى داخل البيت .
وعندما فرغ الجميع من المشاهدة كان حمدي ووالده قد اختفيا من الحي كله وركبا السيارة وقادها الوالد وهو يقول :.
- -عاوز تتجوز واحدة أمها مجنونة يا ابن خريجة أكسفورد ... ينفع دي تكون جدة أولادك يا حمدي ؟ -
ثم انطلق بالسيارة وهو يقول في نفسه: -خسارة وردة مزروعة في كوم زبالة- .
ولم يجد حمدي ما يرد به على والده فآثر السلامة وسكت .

هذا هو الحب

الحنان الذي أحس به وهي بين أحضانه لم يشعر به من قبل، ولم يعرف له طعمًا قبل هذه الساعة ... تلك النظرة التي تنطق بالحب وتنادي على العشق لم تر عيناه مثيلًا لها ولم ينظر إليه بها أحد قبلها .. كل ما مر من سنين وكل ما عايش من ظروف توقف عند تلك اللحظة، وكأن الزمان قد أراد مكافأته على طول صبره ووحدته فأهداه هذا الحب الذي ما كان ليخطر على باله يومًا .

لعل مشكلته التي لم يستطع التخلص منها أنه لم يتعرف على الجنس الآخر قبل ذلك . نشأ في أسرة متدينة بطبعها . انتقل من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الإعدادية ثم إلى الثانوية وهو وحده بلا صديق ولا رفيق ... فمنزلهم كان يرقد بعيدًا عن المدينة ولم تفلح محاولات المدنية والتوسع في البناء أن يقربوا منه إلى باقي المنازل، وكان زملاءه يرفضون أن يذهبوا إليه بسبب هذا البعد وما فيه من المخاطرة . كما أن رقة حاله لم تغر أيًا من هؤلاء الزملاء على صحبته ..

هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإن والدته كانت عادة ما ترفض أن يتركها مع شقيقاته بمفردهن في المنزل خاصة بعد أن توفي والده ولم يترك سوى هذا المنزل .

وحتى بعد أن وطأت قدماه الجامعة انحصرت معارفه في صديق أو زميل ولم تفلح محاولات الزملاء أو تقرب الزميلات في إدخاله إلى مجموعاتهم أو إخراجه من تلك الحالة التي نشأ عليها .. كان دائمًا يتذكر كلمات أمه لا تفعل مع بنات الناس ما لا تحب أن يفعل مع أختك .. وظل محافظًا على هذا المبدأ حتى مرت سنواته الدراسية وحصل على شهادته الجامعية .

حتى بعد أن التحق بالمصنع وتزوجت شقيقته الكبرى ورأى معاملتها لزوجها

ومعاملته لها ظل كما هو .. لم يدر بخلده في يوم ما سيفعله حين يتزوج أو حتى كيف سيتزوج وهو على تلك الحالة من النفور من الجنس الآخر .. عجزت كل الظروف والمواقف عن تغيير الأمر حتى رآها .. وكأنها وحدها من تملك مقاليد أمره ومن تستطيع أن تفتح مغاليق قلبه .. لا أحد غيرها يستطيع أن ينفذ إلى ذلك القلب أو يملك مشاعره .

ما أن رآها حتى نسى كل شيء ... نسى مبدأ الأم والخشية على الشقيقات .. نسى محايلات الزملاء وتقرب الزميلات .. نسى الظروف والأحوال ولم يفكر إلا فيها .. هي فقط ولا شخص آخر - فهي من تستحق أن يهب لها فكره وعواطفه ووجدانه وكل كيانه .

وربما كانت الظروف التي مرت به هي ذاتها الظروف التي مرت بها، فقد ماتت والدتها وهي صغيرة ونشأت بين والدها وشقيقها الأكبر، وتربت على الخشية من الجنس الآخر، فنشأت على الخوف من كل غريب ... لم تحاول التقرب إلى أحد أو حتى الاستجابة لتقرب أحد إليها .. حتى بعد أن أنهت دراستها لم تستطع أن تتخلص من هذا الخوف، فظلت كما هي حتى رأته فتغير كل شيء ونست كل شيء . نست تحذيرات والدها ونظرات شقيقها .. نست اتهامات زميلاتها بالبرود في العواطف .. نست الظروف والأيام ولم تفكر إلا فيه، وكأنه وحده من يعرف خباياها ومن يستطيع أن يحل كل طلاسم قلبها .

نظرت في عينيه فقرأت كل شيء مثلما قرأ كل شيء، وما هي إلا أيام حتى كان كل منهما قد عاش حياة رفيقه وذاب في عشقه .. وفي أول لقاء كان كل منهما قد عبر الحدود وتجاوز كل المخاطر والتحم مع الآخر .

وما أروع ذلك التوافق الذي جمع بينهما وما أندر هذه الصدف التي تجمع بين القلوب .. نظراتهما نطقت بالحب وارتوى قلبيهما بالعشق ولم يعد لأي منهما في الدنيا إلا من يحب .

وابتسمت الدنيا

بدأت معرفته بها حينما التحقا بالعمل في نفس المصنع، في نفس اليوم، وفي ذات القسم وبرغم الظروف الاقتصادية السيئة التي كان يحيا فيها كل منهما فقد استطاعا أن يتجاوزا العوائق وأن تستمر صداقتهما لفترة طويلة . كان يكن كل منهما للآخر الاحترام والتقدير الذي تحول مع مرور الوقت وبقاء الظروف السيئة إلى نوع من الحب، الذي لم يجد بدًا من الخروج إلى الدنيا خاصة في ظل التفاهم والمودة التي كان يبذلها كل منهما للآخر . ولم ينقص الأمر سوى شيئين أولهما - هو أن يكاشف كل منهما الآخر بما يجيش به صدره وكان هذا أصعب ما في الأمر . فكل منهما لم يكن يتخيل حياته بدون الآخر وكل منهما كان يخشى من أن تكون هذه المكاشفة هي بداية لطريق الفراق .

أما ثاني الأمرين فهو أن كل منهما كان على يقين من أن هذه المكاشفة ستجعل الأمور سيئة إلى درجة لا يمكن تصورها، فهو مسئول عن إعالة والدته وأخته وتجهيز الأخيرة للزواج، ولم يكن من مورد للأسرة سوى ما يتحصل عليه من دخل من عمله بالمصنع، وما يدره عليه التاكسي الذي يعمل عليه بعد ذلك من مال .. أما هي فلم تكن ظروفها بأفضل منه فلم يكن للأسرة دخل سوى راتب والدها البسيط من عمله بالإضافة إلى دخلها المتواضع من عملها .

واستمر الأمر على هذا الحال، وتزوجت شقيقته وخف الأمر قليلًا عليه، ولكنه ظل على حاله فما زال الدخل الذي يدره عليه عمله في المصنع والتاكسي الذي يعمل عليه مساءً يكفي بالكاد لسد احتياجاته هو ووالدته، وكل ما جد عليه هو أنه استطاع أن يسدد بعض ديونه، ويستوفي بعض الالتزامات التي تتطلبها معيشته مع والدته، وأن يدفع الإيجار المتأخر لصاحب البيت . أما هي فقد

ظلت على حالها وكأنها تنتظر القطار الذي لم يأت بعد .
وحتمًا كان يجب أن ينتهي الأمر. وجاء اليوم الموعود الذي لابد أن يحدث فيه أحد أمرين إما الفراق وإما الاقتراب فقد توفي والدها، وتركها هي ووالدتها بلا أمل ولا عمل سوى المعاش المتواضع الذي أبقاه لهما، والدخل الذي لا يزال بسيطًا الذي يدره عليها عملها . وكان لزامًا عليها أن تمضي بمركب الحياة هي ووالدتها بلا أنيس ولا صاحب . واستنجدت به ليجيرها مما هي فيه ويساعدها فيما تكابده وتقاسيه ويكون لها الأب والزوج والصديق ...وإلخ .. وبالرغم من صعوبة الحياة على كليهما فقد كان لها ما أرادت وتزوجها وعاشا مع والدته ووالدتها في مسكن واحد وبذلك وفرا إيجار إحدى الشقتين .
وكان هذا الزواج فاتحة خير للجميع فقد تمت ترقيته في عمله، وزاد دخله واستطاع أن يشتري سيارة بدلًا من أن يعمل على سيارات الغير .. كما أن خالها الذي كان بالخارج قد عاد محملًا بالخير الكثير الذي كان لهذه الأسرة منه نصيب لا بأس به .
وزيادة على ذلك فقد أكرمهما الله بأجمل بنت في الدنيا، وارتسمت البسمة على وجوه الجميع وعاشوا في أحسن حال .

وردة

كانت هذه هي أول مرة تفكر فيها في ترك ابنتها ومغادرة بيتها ... نظرت إلى البحر وكأنها تشتكي له وقالت في نفسها وكأنها تخاطبه ... لماذا كل هذا العذاب ؟ .. ما الذي يجعلني أصبر على كل هذه الإهانات بعد الآن ؟.. حقًا لقد اكتفيت . هذا المصيف أنا من دفع حسابه . وهذا الهاتف الذي حطمه أنا التي اشترته من راتبي ... هو الذي تجرد من كل معاني الرحمة والإنسانية ودائمًا ما كنت أسامح في كل شيء وأتجاوز عن كل شيء، وأقول غدًا سيكون أفضل وسوف يأتي يوم يعرف فيه قيمة ما أقوم به من أجله .

أما الآن فماذا أنتظر ؟.. هل هناك ماهو أسوأ من ذلك ؟..

أحست بأن البحر يخاطبها بأمواجه التي صفعت وجهها ... أحست به يقول :.

- -مالك يا بنتي ؟.. ما الذي حدث ؟ - قالت وكأنها تكلم شخصًا ما يقف أمامها :.

- -تزوجت منذ سبع سنوات .. رجل لا أعرفه .جاء إلى البيت - بعدما سمع الخير عنا - وخطبني . لم تكن لي علاقات سابقة . ولم أجد فيه ما ينفر منه، فوافقت وتمت الخطبة وفي خلال عام ونصف كنا قد تزوجنا .. لا أنكر أننا كنا متحابين ومتفاهمين إلى حد ما . ثم توالت الأيام فإذا هذه المحبة والتفاهم ينقلبان إلى تنافر وتناحر وتضييق في النفقة وإهمال في شتى أمور الحياة .. لا تذهبي عند والدتك ... ماذا ستفعلين بالهاتف المحمول وأنت معي طوال اليوم ... لن نخرج اليوم فأنا مشغول ولا أمتلك الوقت لتفاهاتك .... لن تخرجي مع شقيقك فأنا لا أحب أن تخرج زوجتي إلا معي ..

أصبح يضيق علي في كل شيء ولا يستجيب إلى أي طلب حتى أصبحت لا أطيق الحياة معه .

أحست بالبحر يصفعها بأمواجه مرة أخرى ولكن هذه المرة في قسوة وكأنه يقول لها - -وماذا في ذلك؟-.. هذه المشاكل تحدث في كل البيوت ولا يمكن أن يكون ما تقولينه سببًا لخراب البيت .

ابتسمت في مرارة وهي تقول: يا ليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ..إن كل هذه المشاكل أنا قادرة على تحملها بل وتحمل ماهو أقسى منها وأكثر صعوبة، لكن الأمر قد تعدى ذلك بكثير .. فقد رزقني الله بعمل في إحدى الشركات .. كانت ابنتي قد كبرت وأصبح من الممكن أن أرسلها إلى إحدى الحضانات القريبة حتى أنتهي من عملي .... أخبرته بأني سوف أتكفل بمصاريف الحضانة وبحاجة البيت ولن يشعر بأي تغيير في حياته فميعاد ذهابي إلى عملي سوف يكون بعد ذهابه هو إلى عمله وسوف أعود إلى البيت قبل أن يعود، وسوف أجهز طعام الغداء في الفترة التي يقضيها على المقهى في المساء، وسوف أرتب البيت وأنظفه في تلك الفترة وإذا شعر بأي تغيير في نظام حياته فسوف أترك العمل فورًا

ثار وهدد وتوعد وأقسم بأغلظ الأيمان أنني لن أذهب إلى هذا العمل أو إلى أي عمل آخر فالمرأة - كما يقول - ليس لها إلا بيتها وأن تقوم على راحة زوجها .

وبعد تدخل والدي ووالده في الأمر قرر العدول عن قسمه والموافقة على ذهابي للعمل بشرط عدم التأثير على حياته .

وبالفعل صارت حياتنا أفضل ما يكون فما يدره عملي من دخل بالإضافة إلى راتبه من عمله جعلنا نعيش كأفضل ما ينبغي واستطعنا أن ندخل ابنتنا مدرسة من أفضل المدارس وهو ما جعلني أعتقد بأن الأمور كلها ستصير إلى الأفضل وأن الأفراح لن تنقطع من بيتنا ليلًا ولا نهارًا ولكني كنت واهمة .

أحست بالبحر قد هدأت أمواجه وتباطأت دفعاته وكأنه يستحثها على الكلام فأكملت :.

- -وجدت من حقي أن أشتري هاتفًا محمولًا ولن أكلفه في ذلك شيء ولكنه ما أن رآه حتى عاد وهدد وتوعد وافتعل خصامًا ليس له أي داع استمر حتى عيد ميلاده فانتهزت الفرصة واشتريت له هدية قيمة جعلته يهدأ قليلًا ويرضى عن حيازتي للهاتف إلا أن ذلك الهدوء لم يستمر طويلًا فما هي إلا أيام حتى عادت

المشاكل إلى الظهور مرة أخرى، وبدأت الأحداث في الاشتعال من جديد وكل مناقشة لابد أن تنتهي بقول واحد : -لابد أن تتركي عملك وتتفرغي لي ولابنتي- وظللت أنا على هدوئي وتصميمي حتى كان ذات يوم أعلنوا فيه عن قيام هذه الرحلة، فقلت في نفسي لعلها تكون فرصة لكل منا لكي يريح أعصابه ويستمتع بالبحر والهواء بعيدًا عن ضغوط الحياة .

دفعت اشتراك الرحلة من راتبي وأخبرته عنها فوافق بل وأحسست بترحيبه بالفكرة بالرغم من أنه لم يفكر يومًا في أن يبحث عن رحلة مثل هذه لنخرج فيها ونقضى وقتًا ممتعًا .

وها هو قد انتظر حتى تجمع كل الزملاء على الشاطئ ثم قام بسبي وإهانتي بل والشكوى إلى البعض من تصرفاتي الطائشة والغير مسئولة .. فيا ترى هل هناك ما هو أكثر من ذلك لأصبر عليه ؟.

نظرت إلى الموج القادم في اتجاهها وكأنها تستحثه هو الآخر على الكلام إلا أن الموج ظل يتوالى ويتوالى عابثًا بالصخور وبرمال الشاطئ بلا أي بادرة للكلام، وكأنه يفكر في الحل الذي يرضيها ولا يضايقها .

وفجأة شعرت بيد تلمس كتفها فنظرت وعينيها قد أغرورقتا بالدمع، فإذا بزوجها يقف أمامها مبتسمًا وهو يمسك بيد ابنته ويمسك في اليد الأخرى بوردة وقدمها إليها وهو يقول : -أنا آسف يا حبيبتي-

-يااااه- .. إنه مازال يعرف أنها تحب الورد ولا تستطيع مقاومته .. لا تعرف كيف ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تجهش بالبكاء . ولكن ما تعرفه أن البحر قد أرسل إليهم موجة حنون تغمرهم وكأنها تقول : - -ربنا يسعدكم- .

يوم شاق جدًا

أوى إلى فراشه منهكًا متعبًا من شقاء هذا اليوم غير الطبيعي ... أخذت ذاكرته تسترجع ما حدث منذ الصباح وحتى الآن ... استيقظ من نومه متأخرًا فوجد أن الماء مقطوع وهو ما يعني أنه مضطر إلى أن يتوضأ بالماء البارد وهو ما لا يطيقه في هذا البرد القارص .. نزل إلى الشارع وأدار المفتاح في سيارته فأبت أن تقوم من نومها الثقيل في هذا الجو، ولم تفلح معها محاولات الدفع ولا فك الوصلات وإعادة تركيبها مرة أخرى، مما اضطره إلى أن يذهب إلى عمله مستقلًا إحدى سيارات الأجرة التي ما أن نزل منها وهم بالصعود إلى الشركة حتى تبين له أن هاتفه ليس معه .. اندفع إلى الداخل وما أن دخل مكتبه حتى أمسك بهاتف محسن صديقه واتصل على هاتفه ..

راوده بعض الأمل لما وجد الهاتف يرن إذن فقد سقط منه في الشارع، أو في السيارة الأجرة ووجده شخص ما .. ثوان وجاءه الرد من الطرف الآخر : - -ألو- ..... أجاب بسرعة :.

- -ألو .. لو سمحت ما تقفلش الخط .. الموبايل اللي مع حضرتك دا بتاعي وأنا محتاجه جدًا- .

سمع ضحكة يبدو أنها لحشاش - من الطرف الآخر الذي تبعها بقوله – -أنت محتاجه؟ .. بس أنا كمان محتاجه- .. ثم أغلق الخط

إذن فقد ضاع الهاتف بما عليه من أرقام ورسائل وصور وذكريات وبات مضطرًا إلى شراء هاتف جديد واسترجاع الأسماء التي كانت عليه .

أحضر له عم دسوقي القهوة - كعادته كل صباح - لكنه ما أن أمسك بالفنجان حتى وقع من يده وانسكب ما فيه على الورق الهام المكدس على المكتب .. قام مسرعًا وبمساعدة الزملاء تم تجفيف المكتب بأقل الخسائر والأضرار .

حاول أن يركز في عمله إلا أن ما ألم به منذ الصباح كان حائلًا دون ذلك، فأمسك بالجريدة الملقاة على المكتب المجاور، وأخذ يطالع ما بها في لا مبالاة وعدم اكتراث حتى أحس ببعض الهدوء في نفسه، فعاد إلى عمله محاولًا إنجاز ما يمكن إنجازه حتى حان موعد الانصراف فخرج من الشركة وذهب إلى أقرب متجر للهواتف فابتاع لنفسه هاتفًا جديدًا، وأعاد تشغيل الخط الخاص به ثم ذهب إلى حيث تقف سيارته منذ الصباح فحاول أن يعيد تشغيلها مرة أخرى إلا أنها ظلت على موقفها ولم تتزحزح عنه .

استدعى الميكانيكي القريب وما أن نظر إلى محرك السيارة حتى قال :

- -دى محتاجة كهربائي يا باشمهندس- .

وأعطاه رقم الهاتف الخاص بأحد العاملين في كهرباء السيارات فاتصل به لكنه لم يأت إلا بعد ساعة وبعد أن نظر هو الآخر إلى محرك السيارة قال : -المارش لازم ينحل- .

إذن فالسيارة لابد أن تسير إلى الورشة .. كيف ؟ .. عن طريق الجر .. اتصل بشقيقه فجاء إليه وشده بسيارته إلى ورشة الكهربائي وتركه وانصرف، في حين جلس هو إلى جانب السيارة قليلًا حتى انتهى الرجل من حل المارش وطلب منه بعض الطلبات فأحضرها من المحل القريب، وانتظر حتى انتهى الرجل من عمله فعاد إلى البيت وهو مبتئس من كل شيء .

استقبلته والدته بحنانها وابتسامتها وخففت من همه وأعدت له الطعام فجلس ليأكل .. وبالرغم من أنه لم يتذوق طعامًا منذ الصباح إلا أنه اكتفى ببعض اللقيمات، أتبعها بكوب كبير من الشاي قبل أن يأوي إلى فراشه .

-أخ- .. لقد نسى في غمار اليوم أن يتصل بمروة .. لقد اتفقا بالأمس على أن يصحبها اليوم إلى السينما .. أمسك بهاتفه واتصل برقمها الذي يحفظه كما يحفظ اسمه .. توقع ثورتها وصوتها الغاضب وكلامها المقتضب .

حكى لها باختصار ما حدث، ثم أخذ يبثها شوقه إليها وحبه لها، حتى هدأت ثورتها ولان صوتها بل وعلت ضحكتها التي يحبها فقال : - -لو اليوم كله مفيهوش إلا الضحكة الحلوة دي أنا راضي- .

ثم ودعها وأغلق الخط وقد نسى تعب اليوم كله .

هناء

وها هي مطرقة الزمن تنهال مرة أخرى بكل قوتها لتستقر فوق رأسها الذي أصبح يعاني الأمرين من هول ما يحدث لها، ومن هذا الاطمئنان الذي اعتادت أن تريه للجميع وأن تكسو وجهها به كلما قابلها أحد .

لقد مرت عليها أيام هذا الأسبوع كأسوأ أيام مرت عليها في حياتها، وظلت المصائب تتوالى فيها عليها فرادى وجماعات، لا تلبث أن تنتهي من كارثة حتى تجد أخرى أمامها وكأنها تنتظر بفارغ صبر انتهاء المصيبة الأولى حتى تحل محلها وهي كما هي - وكما عهدها الجميع - تقابل الناس بابتسامتها الهادئة ونظراتها المطمئنة، أما ما يعتمل في النفس وما يجيش به الصدر فلا يعلم به إلا الله والأكيد أن ذلك الباطن مخالف تمامًا لهذا الظاهر أمام الناس .

يوم السبت الماضي توفي والدها .. توفي في غفلة من الزمن وفي غفلة منها .. هو لم يكن صغيرًا في السن فقد انتهت سنوات عمله ببلوغه سن المعاش منذ سنوات، لكنه لم يمت من الشيخوخة وإنما مات لأن أجله قد حان، ولذلك فسيان أن يكون الموت على فراشه أو أن يكون تحت عجلات تلك السيارة الطائشة التي لم يعرف أحد إلى أين ذهبت بعد أن دهسته ولا ما هي ماركتها أو أرقامها .. كل ما يعرفه الناس أنها سيارة سوداء ذات أرقام دبلوماسية لم ير أحد سيارة مثلها من قبل . وقد دهسته أثناء عبوره الطريق ثم فرت هاربة قبل أن يلحق بها أحد .

هكذا الموت ينادي على صاحب الدور وقد كان والدها هو صاحب الدور هذه المرة .. إنها إرادة الله التي جعلته يستيقظ من نومه مبكرًا ويرتدي جلبابه النظيف ويذهب ليحضر لهم الإفطار الذي كانت تتولى هي إحضاره من قبل ولكنه في هذا اليوم رفض أن تنزل هي لتحضر الإفطار وقال :.

- -خليكي أنت النهارده يا هناء .. أنا هجيب الفطار- .

وبالفعل جلست هي وانتظرت عودته وبالفعل عاد، ولكنه لم يعد بالإفطار وإنما عاد محمولًا على الأيدي والأكتاف وقد تلطخ الجلباب بآثار الدماء والرمال وبقايا الإفطار، الذي شاءت إرادة المولى عز وجل ألا يتناوله .
جلست بمفردها أمام قبره تبكي وتنتحب، وهي تتذكر الأمنية التي كان دائمًا ما يرددها بعد عودته من الصلاة عن رغبته في الموت وهو ساجد بين يدي الله ... قالت من بين دموعها :.
- -الله يرحمك يا بابا .. طول عمرك وأنت شايلنا وعمرنا ما حسينا معاك بحاجة وحشة .. والله لو كان الأمر بإيدي كنت فديتك بحياتي يا أغلى الناس .. . اللهم لا اعتراض- .
ثم تنهدت وهي تكفكف دموعها وتقوم من مكانها وتردد جملتها الأخيرة .. اللهم لا اعتراض .
ثم اصطحبت شقيقتها الصغرى وعادت إلى البيت لتجد أن شقيقيها قد سبقاها إلى هناك وفتحا دولاب والدها وخزانته وقسما فيما بينهما كل ما طالته أيديهما، وعندما قابلاها على مدخل العمارة لم يبال أي منهما باستفسارها وسؤالها :.
-رايحين فين ؟- .. وإنما نظر كل منهما إليها في ازدراء وبدون أن يتفوها بكلمة تركاها وذهبا .. ولم يشاهدهما أحد في سرادق العزاء .
نظرت إلى شقيقتها في استفهام ودخلتا إلى البيت، وعندما اكتشفتا ما حدث أنستهما الصدمة مصيبة موت والدهما، وأقسمت شقيقتها أنها سوف تدخلهما السجن، وهمت إلى الهاتف للاتصال بشرطة النجدة إلا أن هناء حالت بينها وبين ما تريد أن تفعل وهي تقول :.
- -يا مصيبتي يا صفاء هتبلغي النجدة في أخواتك وأبوكي لسة مرتحش في تربته !-
وخوفًا من الفضيحة وحرصًا على الشكل العام قررت صفاء تأجيل ما انتوت عليه إلى يوم آخر، وهي تستمع إلى كلمات هناء وهي تقول :. -الله جاب الله خد الله عليه العوض- . .... ثم خرجتا معًا لاستقبال المعزيين.
في المساء جلست وسط المعزيات وهي تفكر فيما فعله شقيقاها .. أهذا هو

رد الجميل للرجل الذي أفنى عمره في خدمتهما .. من مساعدة في التعليم إلى مساعدة في إيجاد الوظيفة إلى مساعدة في الزواج.. إنها تتذكر شقيقها عمر عندما جاء إلى والدها منذ يومين يطلب منه بعض المال ليشتري بعض متطلبات زوجته، فاضطر والدها أن يقتطع من مصروف البيت المخصص لطعامهم ليعطي له ما يحتاج من مال .. أهذا هو الشكر والعرفان لهذا الأب ؟... أن يترك رجلا البيت العزاء والذي يأخذ عزاء والدها خالها وزوج خالتها .

كانت الابتسامة صعبة المنال في هذا الوقت، لكنها استطاعت بعد جهد جهيد أن تكسو بها وجهها وهي ترد على التساؤلات عن شقيقيها، وهي تخترع كذبة ربما لم يصدقها معظم الحاضرين .

- -أصل أحمد مراته تعبت وعمر راح معاه المستشفى- .

لكن تلك الابتسامة اختفت وأبت العودة للظهور مرة أخرى وهي تتواجه بالسؤال الذي لم تكن تنتظره .

- -أومال خطيبك فين يا هناء ؟ هو كمان معاهم في المستشفى ؟-

خطيبها .. الآن تذكرت أنها لم تره مطلقًا لا أثناء الجنازة ولا بعد ذلك ... لقد كان أول من أخبرته بما حدث فيا ترى ماذا حدث ولماذا لم يأت ؟... أمسكت بهاتفها وحاولت الاتصال به إلا أن هاتفه كان مغلقًا

قالت بينها وبين نفسها : -جيب العواقب سليمة يا رب- .

ظهر يوم الأحد اتصل بها خطيبها .. رد بكل بساطة على استفسارها عن عدم حضوره العزاء .. -ماكنتش فاضي- .. وأكمل كلامه بنفس البساطة وأخبرها بعدم رغبته في إتمام الزواج منها وأن كل شيء قد انتهى .. -ليه ؟- هذه المرة جاوب بكل وقاحة .. هو لا يشعر أنها تناسبه وأنه سوف يتزوج من صديقتها منى - التي قدمت كل منهما إلى الآخر - لأنه يرى أنها ملائمة له أكثر منها ... وأكمل بنفس الوقاحة :. – -ماما هتعدي عليكي عشان تاخد الشبكة والهدايا وتجيب لك القميص اللي اشترتيه في عيد ميلادي والساعة بتاعة عيد الأم- .. وأغلق الخط .

أغلقت هي أيضًا الخط ومسحت دمعة أبت الاحتباس في عينيها وخلعت الدبلة

من إصبعها ووضعتها مع باقي الذهب في علبة الشبكة . وخرجت وهي باسمة لتصطدم بسؤال شقيقتها عن سبب عدم مجئ خطيبها للتعزية في والدها فقالت وهي تتصنع الابتسامة :- -ماعدش خطيبي .. لسه النصيب مجاش- .... واصطحبت أختها إلى المطبخ لإعداد طعام الغداء للمعزيين .

لم تقاوم دمعها وهي تعد الطعام فلم يكن في المطبخ سواها هي وصفاء وكان الدمع ينساب في هدوء على وجنتيها وهي لا تدري أهو دمع الحزن أم الألم أم البصل الذي تبشره ..

استرجعت شريط ذكرياتها مع ذلك الخطيب، الذي بدأ مع أول لقاء لهما في إحدى النوادي حيث قدمتهما صديقتها كل إلى الآخر، ثم توالت اللقاءات بعد ذلك إلى أن تقدم إلى والدها وخطبها .. تذكرت كلماته المعسولة التي كان يدغدغ بها أذنيها، ولمساته الساحرة التي كان يطفئ بها ظمأها إليه . تساءلت بينها وبين نفسها:.

- -معقول كل دا كان وهم ؟-... أكان طوال تلك الفترة منتظر الجواب من صديقتها على حبه ؟.. أكانت هي الوسيلة ليثبت لها كيف يكون الحب ؟

في المساء وبعد أن انصرف الجميع كلٌ إلى حال سبيله، أوت إلى فراشها على أمل أن تلقي بهذا الحمل من الهموم وتستريح منه بالنوم إلا أن هذا الحمل أبى أن يتزحزح من على كاهلها وظلت تحايل النوم وتتهرب من التفكير في كل ما يحيط بها، ولكن أنى لها ذلك فما أن تهرب من منظر والدها وهو محمول على أيدي وأكتاف الجيران بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة، حتى يلاحقها منظر شقيقيها وهما يفران من المنزل بعد أن سلبا مدخرات الوالد وشقاء سنين عمره، ومن ذلك إلى منظر بعض الشامتين ممن حضروا العزاء ليشفوا صدورهم بحال الأسرة المشتتة التي انحل عقدها بعد موت قائدها .. تقلبت على جانبها الآخر لتعاود أذنيها سماع كلمات ذلك النذل الذي لا تدري لحقارته مثيلًا .

ظلت مستلقية على سريرها تتقلب بين هذا وذاك، وظل التفكير يمضي بها إلى شتى الدروب والأنحاء حتى تناهى إلى سمعها آذان الفجر، فقامت وتوضأت وصلت مما أدخل السكينة على نفسها وأكسبها بعض الهدوء، فهمت بالعودة

إلى فراشها مرة أخرى عساها تخطف بعد ساعات النوم قبل أن يأتي المعزيين في آخر أيام العزاء .
ما أن غفت عينيها وخرج عقلها من حيز التفكير إلى براح النوم حتى هبت من نومها مذعورة على صوت رنين الهاتف الخاص بها فقامت وهي تقول :.
- -اللهم اجعله خير- .. نظرت في شاشة الهاتف وداست على زر الرد وهي تقول :.
- -خير يا عمتي في إيه ؟.. -
وأخبرتها عمتها بالقبض على ابنها الوحيد، وسألتها إن كانت تعرف رقم آخر لأي من شقيقيها لأنها تحاول الاتصال بهما على الأرقام التي معهما إلا أنهما لا يردان على الهاتف، وليس لها من أحد غيرهما لتذهب إليه .
فكرت بينها وبين نفسها ربما يظن شقيقيها أنها ستحدثهما عن أمر النقود التي استوليا عليها، ثم تذكرت توصيات ووصايا والدها المتوالية عن ضرورة الاعتناء بتلك العمة، ومساعدتها في أي وقت فهي وحيدة، وقد توفي زوجها في الغربة وليس لها سوى هذا الابن الضال، الذي ربته وأنفقت عليه كل ما جمعه زوجها في غربته ... تذكرت كلماته عندما كانوا يجلسون على العشاء قبل وفاته بأيام :.
- -لو جرا لي حاجة خدوا بالكوا من عمتكم دى ملهاش حد غيرنا- .
ربما كان يشعر بما سيحدث من وفاته وحاجة تلك العمة إلى المساعدة بعد الوفاة مباشرة .
أفاقت من سرحانها على صوت عمتها وهي تبكي على الخط وتسأل عن العمل فقالت :.
- -خلاص يا عمتي أنا هروح القسم وهحاول أتصرف- .
لا تدري كيف قالت هذه العبارة ولا كيف ستتصرف فهي لم تذهب إلى أي قسم من قبل ولا تعرف كيفية التعامل مع الضباط والعساكر ودعت الله وهي تنهض من فراشها أن ييسر كل أمر عسير .
عندما دخلت إلى القسم قابلت - لحسن حظها - أحد الضباط وهو خارج فسألته عن ابن عمتها وشرحت له باختصار ما أخبرتها به عمتها فرد عليها :.

- -أكيد ده هتلاقيه في الدور الثاني في المباحث .. من هنا- .
وأشار لها إلى سلم فصعدت منه، وسألت على مكتب ضابط المباحث، ولم تعرف كيف واتتها الجرأة على هذا النحو لتتحدث مع الضابط الموجود، وكأنها صاحبة حق وتستفسر منه في استنكار عن كيفية القبض على الشباب المحترم - من أمثال ابن عمتها - وإيداعه السجن بدون ذنب .
لاحظ الضابط أنها تتكلم بانفعال، ويبدو أنها قد جاءت إلى القسم بدون أن تعرف الحقيقة، فأطلعها على تلك الحقيقة بالدليل، وأثبت لها أن المهمة التي كان مكلف بها هي القبض على أحد تجار المخدرات من منزله، وعندما ذهب إلى هذا المنزل وجد ابن عمتها يجلس بجوار هذا التاجر، ويتعاطى من المخدرات الموجودة أمامه .
كان كلام الضابط هو ما توقعته إلا أن مواجهتها بالحقيقة على هذا النحو قد أفقدها بعض ثباتها واتزانها، فسارعت بالاستعانة بالبسمة لتغطي على ارتباكها مما أكسبها بعض الاحترام والراحة لدى الضابط، الذي استدعى قريبها وواجهه بما أسفر عنه ضبطه فأقر به وبكى أمام الضابط راجيًا إياه أن يخلي سبيله ويطلق سراحه على وعد بعدم العودة إلى ذلك الطريق نهائيًا .. فقال له الضابط :.
- -والله خسارة إن واحدة محترمة زي دي تخرج من بيتها الساعة دي عشان واحد زيك- .. ثم سمح لها باصطحابه بعد أن حذره من معاودة السير في هذا الطريق مرة أخرى .
اصطحبت هناء ابن عمتها إلى والدته، التي ما أن رأته حتى كاد عقلها أن يطير من شده الفرح لدرجة أنستها أن تشكرها على ما فعلته، فانصرفت عائدة إلى بيتها وهي تقول بينها وبين نفسها :.
- -واديكي عرفتي طريق الأقسام يا هناء ... يا ترى إيه المستخبي تاني ... ربنا يستر- .
ما أن عادت إلى بيتها حتى استعدت بكوب كبير من القهوة لاستقبال من سيأتي في آخر أيام العزاء ممنية النفس باتصال من عمتها تعبر فيه عن شكرها على ما فعلته، واعتبرت أن ذلك الاتصال هو أقل واجب يمكن أن يحدث ... لكن هذا

الاتصال لم يصل إليها بل وصل إلى شقيقتها قرب العصر ونقلته إليها كما جاء :.
- -عمتك بتقول إنك أكيد روقتي الضابط عشان كده أفرج عن ابنها- .
كانت الصدمة هذه المرة أكبر من أن تتحملها وأكبر من أن تمحوها الابتسامة التي حاولت التسارع إلى وجهها، فهوت على الأرض وقد سمحت لدموعها أن تنطلق في حرية وأخذت تلطم خديها وتولول وتندب حظها وتقول :.
- -شفت يا بابا ... هي دي اللي وصيت عليها ؟.... شفت رد الجميل ؟-..
كان المنظر صعب التصديق على أي من الموجودين فهم لم يسمعوا ما قالته شقيقتها كما أن هناء لم تبكي على والدها بهذه الحرارة .. ماذا حدث ؟.. وكثر الكلام ودار اللغط فاحتضنتها شقيقتها وأدخلتها إلى غرفتها، وأرقدتها في فراشها وهي لا تزال تشهق وتنتحب وتتكلم بما لا طائل منه، وظلت بجوارها حتى نامت .. لا تعرف كيف نامت لكنها نامت وكأنها لم تنم منذ عام لدرجة أنها لم تشعر بأي من المعزيين والمعزيات الذين حضروا في المساء كما لم تقلقها هزات شقيقتها لها بين الحين والآخر للاطمئنان عليها، وإنما ظلت نائمة حتى صباح اليوم التالي .
قامت من نومها صبيحة يوم الثلاثاء وقد أحست بألم في رأسها - ربما من كثرة النوم - وكان أول ما فعلته وهي تقوم من فراشها أن توجهت ببصرها ويديها إلى السماء وقالت :.
- -يا رب عدي النهاردة على خير- . ... ثم خرجت إلى شقيقتها التي كانت تتناول إفطارها والتي ما أن رأتها حتى هتفت ... -أخيرًا ؟.. صح النوم- .
وجلست هناء تتناول إفطارها معها وبعد أن شربا الشاي دخلتا إلى غرفة والدهما، وظلتا تقلبان في أوراقه وصوره ومقتنياته وتسترجعان أحداث وذكريات مرت منذ زمن ..
- -دى قسيمة جواز بابا وماما .. دى شهادة ميلادي .. دى شهادتي في تالتة ابتدائي .. ياه صورة جدي .. وإيه دي ؟.. آه دي قسيمة جواز عمر أخوكي- ...
عمر . نطقتها صفاء في استنكار وهي تتذكر ما فعله أحمد وعمر، وسألت أختها عما يمكن أن تفعلاه لتستردا حقهما .. وطبعًا لم تكن صفاء تتمتع بنفس الهدوء

الذي تتمتع به هناء، ولم تقبل مشورتها بأن تستعوض ربنا في هذا المال إلا أنها أضمرت هذا الأمر في نفسها، ولم تتفوه به أمام شقيقتها حرصًا على ألا يحدث لها كما حدث بالأمس .. وربما لعلمها بأن الأسوأ لم يأت بعد .

ظلت الشقيقتان في غرفة الوالد حتى قارب النهار على الانتهاء .. لم تشعرا بحاجة إلى طعام أو شراب وإنما استغرقتهما الأوراق والذكريات حتى كلت أيديهما من التقليب، وأعينهما من القراءة، فقامتا وأعدتا طعام الغداء وجلستا لتتناولاه .

كانت تشعر طوال اليوم بتغيير في الحالة المزاجية لصفاء، لكنها كانت ترجع ذلك لما حدث في الأيام السابقة، ولكن ما أن جاء المساء حتى علمت بما يعتمل في صدرها فقد قررت - وهذا ما أخبرتها به - أن تنتقل للإقامة مع خالتها عدة أيام، لأنها تشعر برغبة في تغيير الجو والبعد عن المنزل قليلًا، خاصة بعد أن أصبحت جدرانه تنطق بالكآبة .. بعد وفاة والدها وما فعله شقيقاها .

ذهلت هناء من كلام شقيقتها .. هي تعلم أن تلك الخالة قد فاتها قطار الزواج، وهي تقيم بمفردها في منزل العائلة. لكن هي تعلم أيضًا أن هذه الخالة قد انقطعت صلتها بهم منذ وفاة والدتها وقد رفض والدها - رحمه الله - أي اختلاط بينهم وبينها ولم يسمح لصفاء بأى اتصال بها حتى بعد أن أصابتها بعض الأمراض التي أقعدتها لفترة طريحة الفراش .. هي تعلم ميل شقيقتها لحياة تلك الخالة فلا ضابط ولا رابط لأي شيء، تتغاضى عن كلام الناس وهي عائدة إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل .. لا تخجل من الاستدانة من أي أحد لأى سبب، وإن لم تجد المال لرد الدين فدائمًا ما كانت تجد ما تقدمه لتأخير السداد.

حاولت أن تثني شقيقتها عما انتوته، إلا أن صفاء أبت أن تصغي إليها أو أن ترضخ لما تطلب .. ذكرتها بكلمات والدها وتوصياته .. بعدم الاختلاط بتلك الخالة وحرصه على إبعادهما - خاصة - عنها .. ذكرتها بأن هذه الخالة هي الوحيدة التي لم تأت لتقديم العزاء في والدها .. ظلت تتكلم وتتكلم وصفاء لا تصغي لها . ولما لم تجد لكلامها أي صدى رجت شقيقتها أن تؤجل هذا الأمر، ولو لأيام حتى تعتاد على الحياة بمفردها في البيت إلا أن صفاء ردت عليها بكل حزم :.

- -هناء أنا خلاص جهزت نفسي وهمشي الصبح .. أنا محتاجة أرتاح شوية بعيد عن البيت .. وكمان كل واحدة فينا لازم ترتب حياتها خصوصًا إننا بقينا بنتين من غير راجل- .

ثم تركتها وانصرفت إلى حقيبتها وجلست هناء تفكر فيما ستفعله .

عادت كلمات صفاء لترن في أذنيها وهي تستيقظ من نومها في اليوم التالي (بنتين من غير راجل)

حقًا لقد أصبحتا بلا سند ولا معين .. عليها منذ هذه اللحظة أن تقف في طابور العيش وأن تذهب إلى السوق وأن تقضي النهار عند الجزار والبقال وبائع الفول ... هي قد تعودت على هذه الأمور حال حياة والدها لكنه كان عادة ما يساعدها ويحمل عنها بعض العبء، أما الآن فإنها سوف تحمل العبء وحدها ..وقبل هذا وذاك عليها أن تستخرج إعلام وراثة لوالدها حتى تتمكن من صرف المعاش - هكذا قالت لها إحدى المعزيات - كيف ؟.. لا تعرف .

أعادت التفكير في رغبة شقيقتها بالإقامة عند خالتها ... هي تعلم أن ذهاب صفاء عند خالتها سوف يتحول من زيارة مؤقتة إلى إقامة دائمة .. جال في خاطرها أن صفاء لم تذهب بعد فقامت من فراشها ونادت عليها، وبحثت عنها في غرفتها وفي المطبخ وفي الحمام عساها لا تزال في البيت، إلا أن بحثها قد ذهب سدى .

الآن هي وحيدة وهي لا تحب الوحدة، بل يمكن القول أنها تخشى الوحدة ولكن ما العمل فنظام حياتها من الآن فصاعدًا لن يقوم إلا على الوحدة، وعليها أن تتخلص من الأوهام والهواجس التي عادة ما تنتابها عندما تشعر بتلك الوحدة .

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ودخلت إلى المطبخ وأعدت إفطار خفيف، ثم جلست لتتناوله أمام التلفاز الذي لم يفتح منذ وفاة والدها .. أمسكت بالريموت كنترول وظلت تتجول بين القنوات حتى استقرت على أحد أفلام الرسوم المتحركة فجلست أمامه حتى انتهت من إفطارها وشربت الشاي ثم سرحت بخيالها فيما يجب أن تفعله.

تذكرت والدتها حينما كانت صغيرة ..كانت دائما ماتقول لها :.
- -لو حسيتي نفسك فاضية غيري نظام البيت- .
حقًا يا لها من فكرة .. قامت من مكانها ودخلت إلى المطبخ فغسلت الأطباق المتبقية من الأمس ونظفته جيدًا، ثم خرجت إلى الصالة وظلت تنقل في الكراسي وتعيد فرش السجاد، مما أخذ منها الكثير من الوقت والمجهود، ولم تنته منه إلا عند دخول المساء فدخلت إلى الحمام واغتسلت وتوضأت وخرجت لتصلي ما فاتها ثم جلست لتتناول غدائها - أو عشاءها - ثم تمددت على الأريكة المقابلة للتلفاز لتكمل قراءة رواية العجوز والبحر لأرنست هيمنجواي، ولم تتركها من يدها حتى أتت عليها ثم أخذت تتجول بين قنوات التلفاز حتى جذبها النعاس إليه فنامت في مكانها .
برغم أن مكان وطريقة النوم لم يبعثا بالراحة في نفسها إلا أنها لما استيقظت صباح الخميس، وجدت في نفسها بعض النشاط والقوة وأحست ببعض الهدوء النفسي فقامت إلى دولاب ملابسها وأخرجت بعض الملابس السوداء - التي تتماشى مع تفكير الجيران وكلامهم الذي لا ينتهي - وعزمت لتقضي اليوم كله في الهواء الطلق، وفكرت أنها ليست أقل من شقيقيها الذين لم يراعيا أبسط قواعد الآداب والذوق بل والإنسانية فاستوليا على حقها وحق شقيقتها وهربا قبل أن يهدأ والدها في قبره . كما أنها ليست أقل من شقيقتها التي قررت أن تعيش حياتها كما يحلو لها، بلا مراعاة لتقاليد ولا آداب ويعلم الله ما تخفيه في صدرها .
تطلعت إلى حقيبتها فرأت أن ما تحويه من مال يكفي ويفيض لهذا اليوم ووالدها قد أحضر - لحسن الحظ - طلبات الشهر منذ أيام وبالتالي لن تقلق من شيء .. أغلقت هاتفها وهي تقول لنفسها :.
- -معدتش حد يستاهل إني أسيب التليفون مفتوح علشانه- .
انطلقت تطوف بالشوارع وتتسلى بالإطلاع على واجهات المحلات وكلما شعرت بالتعب جلست على أحد المقاعد الإسمنتية المنتشرة في الشوارع أو حتى على أحد الأرصفة .. لم تشعر بالخجل من أحد ولا حتى من نفسها لم تأبه لنظرات

السائرين ولا سخافات الواقفين .. ألقت بكل الهموم خلف ظهرها وتناست التفكير في كل المشاكل .. أقسمت على نفسها ألا تفعل سوى ما تحب وأن تحيا حياتها - بدءً من هذه اللحظة - كما تريد لن تقوم بدور الأخت الكبرى مرة أخرى .. لن ترهق نفسها بالبحث عن الحلول لكل من تقابله مشكلة .. كل الحنان الذي أحاطت به أشقاءها وكل العطف الذي وهبته لهم لم يعد له مكان في يومياتها .. هي أيضًا لها الحق أن تعيش على هواها .. إن كان قطار الزواج قد أوشك على السير بدونها فقطار الحياة لا يترك أحد بل يأخذ الجميع في ركابه، وهي سوف تركب هذا القطار ضمن ركاب الدرجة الأولى .. لن تكون ضمن زحام الدرجة الثالثة بل ستستمتع برحلة حياتها حتى يحين وقت نزولها . حسبت ما سيؤل إليها من معاش والدها، فوجدت أنه مبلغ معقول تستطيع أن تحيا به كما تريد، ثم أنها حاصلة على ليسانس آداب في اللغة الفرنسية، وهي تجيد تلك اللغة جيدًا وهذا سييسر لها العمل في أحد مراكز الترجمة بمرتب محترم .. أحست بالسعادة تغمرها وتخبرها بأن القادم أجمل .. بل أجمل بكثير .

ظلت تنتقل من شارع إلى شارع ومن محل إلى محل وكلما واتتها فكرة عن المستقبل السعيد الذي تحلم به وتخطط له تلقي بحقيبة يدها من هذه اليد إلى اليد الأخرى . وعلى حين غفلة أحست بجسدها يطير في الهواء من جراء شد حقيبة يدها من شخص كان يركب دراجة بخارية مسرعة، ولأنها تمسكت بالحقيبة في آخر لحظة فقد طارت في الهواء بعد أن خُلع كتفها وسقطت على الأرض في نفس الوقت الذي وقع فيه ذلك الشخص بدراجته البخارية، وتجمع الناس حولها وظلت تنظر في الوجوه التي تتطلع إليها في عدم إدراك لما حدث. وأحست أنها شاهدت ضمن هذه الوجوه وجه شقيقها الأصغر وأحست باسمه يرن في أذنيها .. عمر .. ودخلت في الغيبوبة .

لم تفق من الغيبوبة إلا في اليوم التالي ونظرت حولها فإذا هي - على ما يبدو - في غرفة إحدى المستشفيات وذراعها الأيمن مشدود إلى رقبتها ومثبت فوق صدرها، وقبل أن تحرك يدها اليسرى لتتأكد من هذه الضمادات والأشرطة التي

تحيط بوجهها جاءت إليها إحدى الممرضات مسرعة وهي تقول : - -حاسبي ... حاسبي .. أوعي تحركي إيدك-
قالت هناء في وهن :- -أنا فين ؟.. وإيه اللي جابنى هنا ؟ -
ردت الممرضة : - -إنتي في المستشفى . جابتك هنا عربية الإسعاف مع واحد تاني- .
وحاولت أن تستفهم من الممرضة عما حدث فلم تجد جوابًا شافيًا لأي من أسئلتها وحاولت الممرضة أن تستعلم منها عن أي رقم تليفون لأي من أقاربها إلا أنها لم تستطيع أن تستدل منها على شيء فتركتها وذهبت لترى مريضًا آخر .
أغلقت هناء عينيها وهي تفكر في أن ما ألم بها ما هو إلا ضربة جديدة من ضربات مطرقة الزمن التي يبدو أنها بدأت ضرباتها مع وفاة والدها ولا يعلم متى ستنتهي إلا الله .
حقًا .. إن اسمها هناء لكن هذا الأسبوع أثبت أنها لم تحصل من الهناء على شيء إلا على اسمها فقط.

المدرس الأول

لم يعرف أي منهم ما الذي أدى إلى إثارة هذه المواضيع مرة أخرى، فلقد أخذت من وقتهم الكثير والكثير في مناقشتها وتقريبًا ذات الأشخاص الملتفين حول المائدة الآن، وكأنهم يناقشون مشكلة الحرب العالمية في اجتماع المائدة المستديرة.
- -يلغوا الدروس ؟!- قالها الأستاذ خالد مدرس الرياضيات في دهشة واستنكار ثم أتبعها بقوله : -طيب إزاي ؟ ده احنا كل رزقنا منها- ، وأكمل الأستاذ طارق ما ابتدأه زميله وهو يقول: -دا المرتب اللي بنأخده بيتصرف قبل ما نروح بيوتنا- ، وتعالت الأصوات مرة أخرى الكل يستنكر هذا الأمر ويأباه فيما عدا مدرس واحد – ربما كان جديدًا على تلك الجلسة – هو الأستاذ أشرف مدرس الدراسات الاجتماعية والذي ما لبث أن أحس بالهدوء يقترب من مناقشتهم.
حتى قال : - يا جماعة الموضوع ده ممكن يتحل المشكلة الأكبر هي لما يمنعوا الضرب من المدارس نعامل الطالبات إزاى ؟ -
وحيث أن هذا الأمر يبدوا سهلًا هينًا إذا ما قورن بموضوع الدروس الخصوصية الملغاة إلا أن الجالسين بعد أن سكن كل منهم لفترة وعى فيها الكلام الذي قاله الأستاذ أشرف فقد استشعروا خطورة الأمر، خاصة وأن المدرسة التي يشتغلون بها مدرسة بنات تتراوح أعمارهن بين الثانية عشر والخامسة عشر على أكثر تقدير، ومن الطبيعي أن أي منهم لا يستطيع أن يتفوه بلفظ خارج في مواجهتهن كما يحدث في مدارس البنين، ولم يكن يوجد أمامهم سوى العصا لمن تكاسلت عن عمل الواجب، أو تهاونت أثناء الشرح في الحصة، وكان هذا التفكير كافيًا ليعلن كل منهم في تحد وغضب عن عدم تنفيذه لأي من تلك القرارات وليحدث ما يحدث وانصرف كل منهم – كالعادة- إلى حال سبيله

منتويًا عدم إطاعة تلك القرارات.
والأستاذ أشرف – بطل تلك القصة – مدرس لمادة الدراسات الاجتماعية في مدرسة البنات الإعدادية، وهو من أعظم المدرسين في مجاله، ويمكن مع الانتباه في حصته الاستغناء حتى عن كتاب الوزارة وهو لا يعطي دروسًا خصوصية، ولا يذكر أنه أعطى منها شيئًا من قبل، ولكنه يشارك في مجموعات التقوية المدرسية التي لم يذكر – أيضًا – أنه امتنع عن حضور أي منها – إلا بعذر قهري – طوال عمره في التعليم منذ أن كان تلميذًا في المدرسة، وحتى الآن وهو على وشك أن يحصل على لقب المدرس الأول، وعن حياته الشخصية فيكفي أن نعرف أن عمره يقارب الأربعين من عمره متزوج من إحدى قريباته التي تصغره بسبع سنوات، ورغم أن الله قد ابتلاهما بعدم الإنجاب إلا أنه قد استعاض عن ذلك بحب الناس واحترام وتقدير من يتعاملون معه له، فلم يشك من هذا الأمر يومًا ولم تشك منه زوجته، بل اكتفيا بما حباهما الله به وما جعله بينهما من مودة ورحمة هائنين بحياتهما البسيطة المقامة على مرتبه الشهري وحبهما المتبادل ... ولأن لكل ناجح مريدين ولكل محترم محبين، وله أيضًا حقودين ومفترين وحاسدين فقد كان للأستاذ أشرف بقدر من يحبونه ويحترمونه آخرون ممن يكرهونه ويحقدون عليه، ولعل لهؤلاء أكبر الأثر فيما وصلت إليه حالته بعد ذلك.
في اليوم التالي كان أشرف يجلس في الحجرة الخاصة بالمدرسين ناظرًا في بعض الأوراق المرتبة أمامه، حينما دخلت عليه إحدى التلميذات من أحد فصوله وعرفته بنفسها ثم سألته أن يعطيها درسًا خصوصيًا، حيث أنها لا تكتفي بشرح الفصل فقط وسط هذا العدد الكبير من التلميذات، وكأن التلميذة كانت تتوقع الرفض من مدرسها لهذا الطلب فأخذت في مناقشته ومجادلته وهي تسوق له الحجج والأسانيد المدعمة لرأيها .... وحيث أن الأستاذ أشرف كان قد اتخذ العهد على نفسه بعدم الخوض في موضوع الدروس الخصوصية وحيث أن قرار الوزير قد زاده تمسكًا بموقفه فقد باءت كل محاولات التلميذة بالفشل، وبالطبع فإن هذا الموقف لم يرضيها خاصة وهي لم تتعود أن تطلب طلبًا ولا ينفذ فتركته

غاضبة وانصرفت إلى حال سبيلها، وانصرف هو إلى عمله الذي انصرف منه بعد ذلك إلى منزله ليقص على زوجته ما حدث بينه وبين تلك الفتاة، ولمعرفة زوجته بطبائع زوجها وما نشّأ عليه نفسه في حياته فقد وافقته على الصنيع الذي أتاه مع تلك الفتاة، إلا أنها في قريرة نفسها تمنت لو كان زوجها قد قبل ذلك الأمر ولم يصر على رأيه، خاصة بعد الاستجداء الذي جاءت به تلك الفتاة وهي تخاطبه وبعد ما عرفت أن هذه الفتاة هي فاطمة سالم ابنة أشهر صاحب لمحلات الجزارة في البلد، والتي يبسط والدها نفوذه على العديد من أكابر المدينة بكرمه وعطائه مما كان – بالإضافة إلى ما سيحققه زوجها من طفرة كبيرة في الدخل - سيوصل زوجها إلى رجال الصفوة من المجتمع، ولكن ماذا تفعل تلك الزوجة الطيبة أمام حكمة زوجها الخالدة في عدم استطاعته أن يفضل طالبة على أخرى لا لشيء إلا للمستوى المادي المرتفع للأولى.

في اليوم التالي – وأثناء جلوسه بحجرة المدرسين مع زملاءه – دخل عليه شخص يجاوز الأربعين من عمره ومن هيئة ما يلبس من ثياب خمن أشرف أن هذا لابد وأن يكون المعلم سالم والد الطالبة التي عرضت عليه أمر الدرس بالأمس، ولذلك فقد أحس ببعض النشوة عندما تكلم معه وعرف صدق فراسته .. وبعد مقدمة طويلة أمضاها ذلك الرجل في الحديث عن نبوغ ابنته وتفوقها اللامحدود في جميع المواد، وبعد الكثير من السلامات التي تلقاها الرجل من مدرسي المدرسة قاعدين وواقفين وسائرين، طرق الرجل الباب الذي كان ينتظر أشرف وراءه فتحدث بحديث رديء عن كبر عدد التلميذات بالفصل وعن عدم وعي ابنته الكامل لهذا السبب، مما اضطرها إلى أن تأخذ دروس خصوصية في جميع المواد، ما كلفه المبالغ الطائلة التي لا يبخل بها أبدًا على ابنته وهذا ما جعله يأتي اليوم ليعيد عليه ما طلبته منه ابنته بالأمس بشأن الدرس الخصوصي ... وعبثًا حاول أشرف إقناع الرجل بمبدأه في عدم إعطاء الدروس الخصوصية، وأخذ يعدد له في أسماء المدرسين الأكفاء ممن يقومون بهذا العمل وأنه قد صدر قرار من وزير التربية والتعليم بمنع الدروس الخصوصية، إلا أن الرجل كان من الواضح أنه قد جاء مصممًا على ما أراد ولم تفلح أي محاولة أبداها أشرف تجاهه، كما أنه

لم يرض بالحل الوسط الذي اقترحه أشرف، وهو أن تشترك ابنته في مجموعات التقوية التي تعقد بالمدرسة، وظل مصممًا على رأيه متمسكًا بما أراد ولكن أمام الرد الذي لا يتغير وأمام عدم الموافقة التي أبداها هذا المدرس أمامه، لم يكن أمام الرجل إلا أن قام منهيًا المقابلة بكلمات غليظة معتبرًا ما أتاه أشرف من رفض يعد إهانة في حقه، ومودعًا إياه بإخباره بأن ما أتاه اليوم سوف يرى لأجله ما لا يتصور وما لا تحمد عقباه ... وبالطبع فإن هذا الكلام لم يكن يرضي الأستاذ المحترم بأي حال من الأحوال ولكنه – ولسبب لم يعرفه – وجد نفسه يؤثر السكوت على الخوض مع هذا الجاهل في حديث لا طائل من وراءه.

ومضى اليوم كما مضى سابقه وجاء اليوم التالي، ودخل الأستاذ أشرف الفصل الذي تدرس فيه التلميذة فاطمة سالم وكأن ما حدث بالأمس لا يعنيه بشيء، لم يتكلم فيه ولا حتى نظر إليها ولو نظرة واحدة وكأن ما حدث له شيء عادي يقابل مثله كل يوم من ساعة أن تخرج وعمل بالتربية والتعليم ... وكان الدرس اليوم عن بعض الأشياء المتعلقة بجغرافية مصر، وبينما كان الأستاذ أشرف يقوم – كعادته قبل الشرح – برسم خارطة مصر على السبورة فإذا به يسمع ضحكة عالية رقيعة إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم احترام صاحبتها، وعدم صلاحيتها للبقاء ليس في الفصل وحسب، وإنما في التعليم كله وهذا ما جعله يلتفت إلى الخلف في دهشة وغضب ليرى مصدر هذه الضحكة فإذا هي فاطمة سالم ! وحاول الأستاذ أشرف أن يلملم شتات غضبه وأن يبدو بمظهر عادي أمام التلميذات وهو يسألها عن سبب تلك الضحكة التي – من وجهة نظره – ليس لها أي داع، فأجابته في فتور بأنها تذكرت موقفًا حدث لها وأسرتها، وبالطبع فإن هذا القول لم يكن ليقنع مدرس حديث التخرج فما بالنا برجل قد أمضى الكثير من سنوات عمره بين جنبات المدارس وردهات التعليم ولكنه – ولسبب لم يعرفه أيضًا – آثر السكوت مرة أخرى وعنفها قليلًا على ما فعلت وضربها بعصاه على يديها، ثم أمرها بالجلوس وأكمل شرح الدرس كأن شيء لم يحدث وظل كذلك إلى أن انتهت الحصة ودق الجرس معلنًا الفاصل المريح بين الحصتين فلملم أشرف حاجياته وخرج من الفصل حيث قابل الأستاذ نصر

مدرس اللغة العربية المتجاوز الأربعين من عمره بسنوات، والذي يحمل بين جوانحه حقد كامل وغل دفين لهذا الأستاذ الذي استطاع أن يستجدي احترام وحب الآخرين في حين لم يفلح هو – رغم كلامه المعسول وثراءه الفاحش من الدروس الخصوصية – أن يفعل ذلك.

في الحصة التالية للأستاذ أشرف – ولم تكن في اليوم التالي – في هذا الفصل – ولنقل أنه فصل ٤/٣ – دلف إلى الفصل كعادته ووقفت التلميذات إجلالًا واحترامًا له – ونادرًا ما كن يفعلن ذلك – وكعادته أيضًا أمسك بيده قطعة الطبشور البيضاء واستدار ناحية السبورة – التي محى ما كان عليها عقب دخوله مباشرة – وأخذ يرسم الخريطة محل درس هذا اليوم، وما كاد أن ينتهي من الرسم حتى سمع همهمة آتية من مؤخرة الفصل تغافل عنها، واستمر في عمله إلا أنه على حين غرة تحولت تلك الهمهمة إلى ضحكة عالية كالتي سمعها في ذلك الفصل بالأمس القريب، ولذلك فقد كان متيقنًا من صاحبة هذه الضحكة، ومن مقصدها منها فالتفت ناحيتها وهو يعلم ردها على سؤاله عن سببها مسبقًا ولذلك فقد فتح بهدوء باب الفصل وأشار إلى التلميذة الخائبة تجاهه وهو يقول لها بفمه ويشير لها بيده ..-بره- .. وكان هذا آخر ما كانت تتوقعه الفتاة فانكسرت ابتسامة السخرية على شفتيها وهي تترجاه أن يبقيها بالفصل إلا أنه – في هذه المرة – أصر على رأيه وقبل أن تصل الفتاة إلى باب الفصل سمعت الأستاذ يسأل عن ورقة إثبات الغياب والحضور ليسجلها في سجل الغائبين ثم أغلق الباب خلفها - وعاد في هدوء أيضًا - إلى استكمال الشرح.

في الخارج تقابلت فاطمة مع الأستاذ ماهر مدرس الدراسات الاجتماعية الأخر، والذي يكن لأشرف عداوة كبيرة لما ينعم به الأخير من حب وتقدير وما يلاقيه من احترام ... وعندما سألها ماهر عن سبب خروجها من الفصل في هذا الوقت المبكر على نهاية الحصة أخبرته بأن الأستاذ أشرف قد وبخها على عدم فهمها لما يشرحه، وأنه دائم الإساءة إليها وتعنيفها حتى تأخذ درس خصوصي عنده، وقد زاد هذا التعنيف وزادت هذه الإساءة اليوم عندما فشلت في الإجابة على سؤال من خارج المنهج وجهه إليها، ولم تتوصل أي من التلميذات للإجابة عليه

فقام بضربها وطردها خارج الفصل ... وبالطبع فإن ماهر لم يكن ليصدق – رغم ما يكنه لأشرف من كراهية – أي من تلك الافتراءات التي تدعيها هذه البلهاء، ولكنه على استعداد كامل لتصديق أي أكذوبة – مهما بلغت في عدم معقوليتها – إذا كان الغرض منها التنكيل بالأستاذ أشرف والإيقاع به خاصة بعدما ألهبت الفتاة حماسه بأن أنبأته في خضم حديثها بأن تعنيف الأستاذ أشرف لها بدأ منذ أن عرف أنها انتوت أن تأخذ درسًا خصوصيًا عنده هو – الأستاذ ماهر – فثار على زميله أمام التلميذة التي تظاهرت بالبكاء وأخذ في توبيخه وتعنيفه وقذفه بأبشع الألفاظ وأذم الصفات إليه، ثم أذن لها بالانصراف وقد انعقدت نيته مع نيتها في إيقاع الأذى بهذا المدرس.

--دبور وزن على خراب عشه- .

نطقها المعلم سالم في غضب بعدما عرف من ابنته ما حدث بينها وبين الأستاذ أشرف وانتهى بطردها من الفصل ... وبالطبع فقد اعتبر المعلم سالم طرد ابنته من الفصل هو إهانة له هو شخصيًا وخطيئة لا تغتفر دون أن يعبأ بما قدمته ابنته في مقابل ذلك من أفعال متفق عليها بينهما.

وبالرغم من نجاح خطته في أن يجعل الأستاذ أشرف هو البادئ بالإيذاء إلا أنه لم يتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد، ولذلك فقد عجل بما كان يعمد إليه من عمل تجاه هذا الرجل فأمسك بسماعة الهاتف، وطأت أصابعه بعض أزراره ثم تحدث إلى من رد عليه بالحديث الذي جلب البوار والمهانة للأستاذ المحترم والذي كانت كل جريمته التي أتاها هي أنه محترم .. ليس إلا!

بعد يومين فوجئ الأستاذ أشرف وهو جالس في منزله يتصفح إحدى الجرائد بصوت جرس الباب وكان مصدر المفاجأة هنا أن هذا الوقت من أوقات الظهيرة غير معتاد أن يزار فيه أحد ولكن تكرار الرنين أكد له أنه المقصود بهذه الرنات، وأن طفل الجيران لم يقم كعادته برن الجرس، والاختباء في منزلهم، فذهب إلى الباب وفتحه فإذا به شخص يرتدي الزي العسكري الخاص بالعاملين بالشرطة، والذي أخبر الأستاذ أشرف بأنه مطلوب للمثول أمام النيابة في الغد، لسؤاله عن محضر محرر ضده لا يعلم هذا الشخص عنه شيئًا، ونصحه في النهاية بألا

يذهب وينتظر إلى أن تنظر القضية أمام المحكمة، ثم يعرف ما فيها ثم تركه هذا الشخص ومضى إلى حال سبيله مخلفًا ورائه الأستاذ أشرف غارقًا في بحار الدهشة والقلق، ولأنه لم يتعرض لموقف مثل هذا من قبل فلم يأخذ بنصيحة هذا الشخص وما أن أضاء الصباح وجاء موعد ذهابه إلى المدرسة حتى مضى إلى هناك، وقابل الأستاذ فوزي مدير المدرسة وأخبره بما وقع ثم تركه في حيرة هو الأخر، وذهب إلى حيث قال له رجل الشرطة، وهناك فوجئ بالمعلم سالم جالسًا أمام وكيل النيابة ينظر إليه في غطرسة واستعلاء، وهو يقول أن هذا الشخص هو من ضرب ابنته وأحدث بها إصابتها لأنها رفضت أن تأخذ درس خصوصي عنده، وعندما وجه وكيل النيابة الاتهام إلى أشرف وطلب منه أن يدافع عن نفسه – خاصة وقد تم سؤال ابنة المعلم سالم بالمستشفى عن محدث إصابتها فأجابت بمثل ما أجاب به والدها – وقف أمامه ذاهلًا وبصعوبة استطاع أن يحل عقدة لسانه، ثم انطلق يكذب ذلك الادعاء ويخبره بحقيقة ما حدث، ويستشهد بالأستاذ زكريا مدرس الرياضيات بالمدرسة، والذي ترك المدرسة برفقته في اليوم الذي يدعي هذا الرجل وابنته أنه ضربها فيه أمام المدرسة، ثم بزوجته التي ذهب معها إلى أهلها مساء ذلك اليوم، ولم ير تلك التلميذة منذ أن طردها من الفصل حتى الآن، وثابت ذلك من سجلات الغياب الموجودة بالمدرسة ... وعندما انتهى من كلامه الذي اختلطت معه بعض العبرات التي أبت أن تحبسها محاجر عينيه، كان وكيل النيابة العامة على اقتناع كامل بصحة ما قال، خصوصًا وقد تأكد له ذلك بعد تلقي المكالمات المتتابعة والمتوالية التي جاءت من بعض الضباط المشهود لهم بقلة الذمة وانعدام الضمير في طلب الأمر بحبس ذلك المدرس، ليستطيعوا أن يفعلوا معه ما يشفي غليل المعلم سالم ويثلج صدره وأيضًا بعد أن عرف خط الطبيب الذي وقع التقرير الطبي المختوم بختم المستشفى العام، والذي يوضح إصابة الفتاة بإصابات مهما بلغت خفتها وضآلتها فإنها ستكون مانعًا لها من الدراسة بعد ذلك لمدة عام كامل على الأقل، فعادة ما تأتي المحاضر الملفقة مرفقة بالتقرير الطبي المنسوخ بخط ذلك الطبيب والمذيل بتوقيعه ... وأمام ذلك كله لم يجد وكيل النيابة ليريح ضميره إلا

أن يخرج المعلم سالم خارج غرفة التحقيق، ويطلب من أشرف التصالح مع هذه الفتاة وإرضاء والدها لما له من سلطة ونفوذ على غالبية ضباط الشرطة بالبلد، ثم يقرر في النهاية إخلاء سبيله من سراي النيابة بضمان محل إقامته.
بالطبع لم تكن هذه نهاية المطاف فمن خلال حديث وكيل النيابة عرف الأستاذ أشرف أنه ما أن يمر أسبوعان حتى يتم إحالة القضية لنظرها أمام المحكمة، ولذلك فلابد من حل لتفادي المهانة التي سوف تنتهي بها هذه المسرحية الهزلية، ولذلك فما لبث الأستاذ أشرف أن خرج من النيابة حتى ذهب إلى المدرسة وقابل الأستاذ فوزي وقص عليه ما كان فوعده الأخير بمساعدته حيث أنه واثق تمام الثقة من براءته وعدم صحة هذه الادعاءات الكاذبة التي يدعيها هؤلاء القوم.
وبعد انتهاء اليوم الدراسي ذهب الأستاذ فوزي إلى المعلم سالم في منزله، وعبثًا حاول أن يثنيه عما انتوى عمله إلا أن الرجل أبى ورده في غلظة ووقاحة، وأخبره وهو ينهي المقابلة أن طرد ابنته خارج الفصل هو إهانة له شخصيًا، وإذا أراد هذا المدرس أن يعفو عنه المعلم، ويتنازل عن المحضر فعليه أن يأتي بأهله مجتمعين ويعتذر له ولابنته أمام جميع أفراد عائلته، وعندما رد عليه الأستاذ فوزي بأن في ذلك الكثير من الذل والمهانة للأستاذ أشرف خاصة وأنه على وشك الترقية لوظيفة مدرس أول في مادته وأنه لا يصح أن يتم هذا الاعتذار بهذا الشكل المهين، خاصة وأنه على ثقة تامة بأن أي من ادعاءات المعلم وأكاذيب ابنته لم يحدث منها شيء، فقال له الرجل وهو يقوم ليصرفه: -خلاص يبقى يستنى لحد ما تخلص القضية ونشوف اللي هيحصل بعد كده- ... وهنا لم يجد الأستاذ فوزي أمامه إلا أن قال للرجل وهو ينصرف : -خلاص يا معلم أنا هعرفه قرارك ثم تركه ومضى إلى حال سبيله-.
في مساء هذا اليوم كان منزل المعلم سالم – والذي عادت إليه ابنته – على موعد لاستقبال زائر أخر سوف يكون له إسهاماته الكبيرة في قضية الأستاذ أشرف آلا وهو الأستاذ ماهر والذي كان حتى لحظة ابتداءه الكلام مجهول بالنسبة للمعلم سالم، ولكن ما لبث أن حدث بينهما تعارف سريع انتهى بسؤال متخوف من صاحب الدار عن سبب هذه الزيارة، وإن كانت بغرض التوسط لزميله لدى

المعلم فقد انتهت قبل أن تبدأ، وإن كان غير ذلك فأهلًا وسهلًا به ... وبدون أن يجيب الأستاذ ماهر على سؤال المعلم أخذ يحدثه في عجالة عن المحاسن التي يتمتع بها الأستاذ أشرف والسمعة الحسنة والسيرة المحمودة التي يمشي بها بين الناس، وكلما حاول المعلم أن يقاطعه أشار له بالسكوت حتى انتهى في آخر الأمر إلى الحديث عن المشكلة التي وقعت بينه وبين ابنته ثم بينه وبينه ثم بينه وبين ابنته والتي انتهت بطردها من الفصل، وقد شاهد الأستاذ أشرف وهو يخرج ساعتها من المدرسة برفقة الأستاذ زكريا في طريقهما كل إلى منزله، وبالطبع فإن الأستاذ زكريا مهما عرض عليه المعلم من أموال ومصالح فأنه لن يشهد بخلاف الحقيقة أما هو – الأستاذ ماهر- فعلى استعداد للتعاون معه نظير خدمة بسيطة هي أن يتوسط له للترقية كمدرس أول بدلًا من الأستاذ أشرف خاصة وإن وكيل الوزارة تربطه به علاقة نسب فهو زوج شقيقة زوجته.
.. ووقع العرض الذي أدلى به المدرس النذل مكانه المرجو منه في نفس الرجل الجاهل، فرحب به وأعطاه كلمته بأن المنصب قد بات من حقه ونصيبه وأنه سوف يجد علاوة على ذلك ما يرضيه منه من جراء هذا العمل.
في هذا الأثناء كان اجتماع أخر ينعقد في منزل الأستاذ أشرف يحضره الأستاذ فوزي مدير المدرسة والأستاذ زكريا مدرس الرياضيات، بدأ هذا الاجتماع بحديث الأستاذ فوزي إلى رفيقيه عما تم بينه وبين المعلم سالم، وما أن انتهى منه حتى علا صوت الأستاذ زكريا باستحالة أن يحدث ذلك وأنه سوف يذهب في الغد ليدلي بأقواله أمام النيابة والتي لا شك أنها ستكون لها أكبر الأثر في تقدير المحكمة لباقي الأقوال، وأن هذا الموقف لا يجب أن يمر هكذا أو يجب أن تتخذ الوزارة موقفها لحماية ذلك المدرس النظيف إلا أن أشرف – بعد أن عرف من الأستاذ فوزي علاقة النسب بين المعلم سالم ووكيل الوزارة – لم يستطع الرد وغامت الدنيا أمام عينيه، وظل واجمًا حتى استحثه صاحبيه على الكلام فأخبرهما بأنه يحتاج إلى بضعة أيام للتفكير في الأمر وبحثه ثم سيرد عليهما بما انتوى عليه.
في غضون هذه الأيام القليلة التي طلبها الأستاذ أشرف كمهلة للتفكير والرد على

طلب المعلم سالم، حدثت الكثير من التطورات غاية في الأهمية والخطورة في وقت واحد كان أولها أن ذهب الأستاذ زكريا - بدون أن يدري أحد بذلك - إلى النيابة العامة وأدلى بشهادته حول الواقعة والتي يدعيها المعلم سالم وابنته، وهناك فوجئ بوكيل النيابة يواجهه بأقوال شاهدي الإثبات الأستاذ ماهر زميله في المدرسة وعطوة صبي المعلم سالم، واللذان أكد كل منهما صحة حدوث الواقعة ... وبالطبع فإن الأستاذ زكريا لم يكن ليخبر أحد بهذا الأمر - على الأقل في هذا الوقت - خاصة وأن ذهابه إلى النيابة كان بغير رغبة زميله الأستاذ أشرف، ولكن لحرصه الحثيث على مصلحة هذا الرجل وعلى سمعته وسيرته بين أقرانه ... أما التطور الثاني فكان في المدرسة حيث قامت بعض التلميذات بزيارة فاطمة في منزلها، ونقلن منها الأخبار التي وقعت والتي كانت تخفى عليهن وسربنها إلى زميلاتهن وكل واحدة تزيد وتنقص فيما سمعت حسبما يتفق مع فكرها ومزاجها، كل هذا والأستاذ أشرف يدخل إلى الفصول حسبما استقرت عليه عادته، ويشرح الدروس الشرح المعتاد منه بلا زيادة ولا نقصان، وكأن ما يحدث لا يعنيه بشيء وليس له فيه لا ناقة ولا جمل، وبالطبع فقد كان ذلك مصدر أسى وأسف لغالبية التلميذات ومصدر كراهية لهذه التلميذة الخائبة وهذا الأستاذ النذل، الذي خان مادته وخان زميله بل وخان نفسه أيضًا، وهو كل يوم يخترع قصة بذيئة ينسبها إلى الأستاذ أشرف ليشوه بها صورته أمام من يحبونه ويحترمونه، ولكن هيهات هيهات أن يبلغ مراده من ذلك ...

التطور الثالث كان في منزل الأستاذ أشرف نفسه، والذي لم يجد من يفضي إليه بما يعتمل في نفسه إلا زوجته الوفية، فقص عليها كل الحكاية من أولها لأخرها وأراد مشورتها في الأمر، وعندما طلبت منه الموافقة على أن يعطي الدرس لهذه الفتاة أخبرها بأن الأمر قد خرج الآن عن هذا النطاق، وكل ما يشغل تفكيره الآن هو كيفية تجنب الخوض في هذه القضية التي لا يعلم مدى ما ستصل إليه إلا الله، خصوصًا وأنه لو صدر ضده حكمًا فيها فإنه لن يستطيع ممارسة مهنة التدريس مرة أخرى لأن هذا الحكم سوف يكون قاصمًا له، ولن يكون له قيام مرة أخرى وبعد مناقشات ومحاورات امتدت كل يوم إلى الساعات الأولى من

صباح اليوم التالي، وشملت العديد من الأهل والمعارف استقر رأي الأستاذ أشرف في النهاية على التسليم للمعلم بما أراد، وكان هذا القرار هو الصدمة القاسية التي تعرضت لها حياته كلها، وسقط من جراءها أسير للمرض ثلاثة أيام كاملة، فضلًا عما قاساه وكابده من آلام نفسية صعبة أزهدته في الطعام والشراب وحتى في المدرسة وفي العمل.

في اليوم التالي كان الأستاذ فوزي هو من وقع عليه التكليف للذهاب إلى المعلم سالم للاتفاق معه حول الموعد الذي يأتي إليه فيه الأستاذ أشرف وعائلته، ليتما ما اتفقا عليه ورغم فظاظة الرجل وغلظة الكلمات التي خرجت منه، إلا أنه بات من الواضح أنه قد وصل إلى قمة شهوته ومنتهى سعادته وقد استطاع أن يوقع هذا المدرس الذي جابت سمعته الآفاق وأثنى عليه القاصي والداني في المذلة التي أرادها له وفي الهوان الذي اختاره له كما يجب.. ورغم أنه قد واتته لحظة أحس فيها بالشفقة على هذا المدرس النابغة – كما يقول وكيل الوزارة – إلا أنه طرد ذلك الخاطر ونظر إلى الأستاذ فوزي في كبرياء واستعلاء وهو يدعوه في وقاحة أن يأتي في الغد وأن يأتي معه من يحب ويستطيع هو أن يأتي معه لو أراد ثم قال وصوته يعلو ..

--عشان يعرف جزاء اللي يتطاول على أسياده-.

غادر المدير المنزل وهو يستشيط غضبًا من هذا الرجل الوقح، وانتوى الذهاب إلى منزل أشرف ليخبره بما حدث ويعلمه بالميعاد الذي أقره الرجل إلا أنه – وهو ما زال قريبًا من منزل المعلم سالم – لمح سيارة المعلم المرسيدس يقودها سائقها فظن أن بداخلها ابنته فاطمة، وعندما هم أن يذهب إليها ليجعلها تحدث والدها علها تثنيه عما انتوى عليه رأى بوضوح الشخص الجالس بالخلف فقال في دهشة – موجهًا كلامه إلى نفسه – -ماهر !!-

كان هذا الأمر مما زاد الموقف خطورة وتعقيدًا، فالأستاذ فوزي لم يكن على دراية بما عرفه الأستاذ زكريا حينما ذهب ليدلي بشهادته في النيابة، كما لم يكن على معرفة بما كان الأستاذ ماهر يقوله ويفعله في فصول التلميذات من وقاحات منسوبة إلى الأستاذ أشرف، وبسبب ذلك فقد غير الأستاذ فوزي مقصده

من منزل الأستاذ أشرف إلى منزل الأستاذ زكريا ليقص عليه ما رأى، ويستشيره في الأمر، وهناك أخبره الأستاذ زكريا بما عرفه في النيابة، وأنه فضل آلا يثير هذا أمام أي من المدرسين حتى لا يزيد الموقف تعقيدًا، خاصة وهو قد ذهب ليدلي بأقواله بغير أن يعرف أحد من المحيطين به ... المهم أن مناقشتهما قد استمرت لوقت قليل وانتهت بأن يظل الأمر بينهما سرًا حتى تنتهي المشكلة على الأقل – ثم بعد ذلك يحلها حلال الأمور العزيز الغفور.

ذهب الأستاذ فوزي بعد ذلك إلى منزل الأستاذ أشرف وأخبره بما دار بينه وبين المعلم سالم من حديث، وظن وهو يتحدث أن الرجل منصت له، ولكن الحقيقة أن الأستاذ أشرف كان منكس الرأس، واجمًا، لا يسمع شيئًا مما يقال، وهو يجول بخاطره في أحوال الدنيا وتقلب الأيام والمهانة التي يتعرض لها بفضل تلك الفتاة الوقحة ووالدها الجاهل.

في اليوم التالي كان عند المعلم سالم في منزله جمع غفير من البشر، فالمعلم سالم وأهله وصبيانه يتوسطهم السيد وكيل وزارة التربية والتعليم – الذي لا يعلم شيء عن هذا الأمر – ويجاورهم الأستاذ ماهر وبعض مدرسين ومدرسات المدرسة ممن أرضى نفوسهم الدنيئة رؤية هذا المنظر الذي سيقع فيه هذا المدرس الفاشل ... وعلى الجانب الأخر يجلس الأستاذ أشرف بجانب زوجته ووالديه وأخوته في حين تختفي الفتاة صاحبة المشكلة في إحدى الحجرات بناء على طلب والدها وبعد مناقشات سريعة فاترة عرف السيد وكيل الوزارة بالأمر ومقصد المعلم سالم من هذا الاجتماع، وتمنى لو يقوم من مكانه ويترك الجميع ويمضي إلى حال سبيله حتى لا يظن أحد مشاركته في هذه اللعبة الدنيئة، خاصة وهو يعلم بكذب ادعاءات وافتراءات الرجل الذي تربطه علاقة نسب به إلا أنه آثر الصمت من أجل خاطر زوجته التي كانت لا تدري – أيضًا – شيئًا عن هذا الأمر وكل ما جاء بها هو دعوة شقيقتها لها مع زوجها وأولادها للغداء عندهم في هذا اليوم ... وبالطبع كانت كبرى المفاجآت التي تلقاها الأستاذ أشرف في ذلك اليوم هي وجود الأستاذ ماهر وسط هذا الجمع – وهذا ما لم يكن يخطر بباله ولا حتى ببال صاحبيه اللذان فضلا عدم الاشتراك في هذه الجلسة حفاظًا

على مشاعر صاحبهما – أما المفاجأة الأخرى التي استقبلها فكانت مجيء الفتاة الوقحة التي قيل في شأنها ما قد قيل، تسير على قدميها بلا عكاز ولا ضمادات ولا حتى مجرد خدش فقام واقفًا ورد نظرتها المستعلية بنظرته الفاترة ثم أجال النظر عنها إلى وجه أبيها، وناداه باسمه مصحوبًا بلقب المعلم المحترم ثم قال لمن حوله دون أن ينظر إليهم : -أنا آسف يا جماعة- ... ثم بصق في وجه الرجل وتركه وانصرف.

وقبل أن يصل إلى الباب متبوعًا بأهله المدهوشين ومضيفيه الغاضبين وزملاءه الحاقدين لحقه وكيل الوزارة، ومد إليه يده مصافحًا وعلى وجهه تبدو أمارات السرور والإكبار وهو يقول :

- -إن شاء الله بكره همضي قرار ترقيتك مدرس أول-.

ذكريات

جلست على المقعد الوثير المواجه للتسريحة الأنيقة المتوسطة للحائط المجابه لسريرها، ونظرت إلى المرآة المثبتة أمامها في وجوم وحسرة، وهي تمر بإصبعها على خطوط الشيب التي بدأت في التسلل إلى جبينها وحول شفتيها، في حين اخترقت عيناها شعرها الأسود الطويل المدلى على كتفيها لتكشف عن بعض الخيوط البيضاء التي أبت أن تختفي بين صاحباتها.

لم تتصور أن يمر العمر بها سريعًا على هذا النحو، فتجد نفسها وقد تجاوزت ربيع عمرها – بل وخريفه أيضًا – وهي تجلس وحيدة في منزل بإمكانه أن يسع أسرة مكونة من عشرة أفراد أو يزيد، وقد مضى من أمامها قطار الزواج ولم ينتظر أن تركب فيه مع الراكبين ... وأخذت تقلب فكرها فيما مر بها من أحداث سنوات عمرها، التي تدنو بسرعة من الأربعين وثقافتها التي أهلتها لشغل أعلى الوظائف وجمالها الذي لا يختلف عليه اثنان وأخيرًا مالها ... هذا المال الذي كان السبب الرئيسي فيما حل بها من نكبة ... هذا المال الذي كان مطمعًا لكل وافد جديد ولكل طارق على باب قلبها ... هذا المال الذي كل ذنبها أنها ورثته عن والدها ووالدتها.

رنت الكلمات في أذنيها – تلك الكلمات التي طالما سمعتها من والدتها ومن خالاتها ومن عماتها ولم تعبأ يومًا بها :

- -يا عزة يا بنتي من كثر خطابها بارت وعريس في اليد أحسن من عشرة في الشارع-.

-آه- .. نطقتها من أعمق أعماق قلبها، وهي تسترجع هذه الأيام التي كان لا يخلو يوم فيها من وافد جديد لطلب يدها وتنظر إلى ما آلت إليه من بوار

وهجر ... إنها تعلم في دخيلة نفسها أنها محببة إلى الجميع وأن كل من يجلس معها لا يريد أن يفارقها من حلاوة كلامها ورجاحة فكرها، ولكن أين الرجل الذي يرحب بكل هذا ؟ ... أين الرجل الذي يمكن أن يتنازل عن بعض من أفكاره وسلطاته ليحيا معها؟ .. بل أين الرجل الذي يرضى أن يتزوج بدون أن يكون هو الآمر الناهي في منزله هو الذي يضحك وهو الذي يغضب وكل ما عليها هو أداء فروض الولاء والطاعة لصاحب السيادة ؟

حقًا إن الله قد خلقها أنثى ولكن ما ذنبها في ذلك؟ إلا أنها أنثى فهي مهما علت أو نزلت لا يحق أن تبدي رأيها في حياتها ولا يحق لها أن تنصح غيرها ... يا لها من فاجعة تلك التي تعانيها فتاة مثقفة في بلد لا يعترف بالثقافات، وهي تارة تتغلب عليها ثقافتها فتأبى كل ما يحيط بها من واقع وأحداث وتارة تهزمها أنوثتها فتضرب بثقافتها عرض الحائط، وتلعن اليوم الذي ولدت فيه وتتمنى أن تقضي ولو ليلة واحدة بين أحضان هذا أو ذاك ولو تتنازل في سبيل ذلك عن كل مالها من ثروة وجاه ... حقًا يا له من شقاء.

لم تدر بالعبرات المترقرقة من عينيها وهي تسير الهوينى فوق وجنتيها وهي تطوي الآلام والذكريات، فكفكفتها بيدها وقامت لتنزع عنها -الروب دي شامبر- الذي ترتديه وأغلقت نور الحجرة، وارتمت على سريرها الوثير واضعة رأسها في وسادتها وهي تنتحب وتتنهد لزمن لم تعرف كنهه أو مدته حتى جذبها النعاس إليه وطواها الكرى ضمن من طوى.

كالعادة

دقت الساعة المعلقة على الحائط – الذي أجلستها الممرضة عليه لتكون في مواجهة الطبيب عند فتح باب غرفته – وأعلنت دقاتها بداية اليوم الجديد .. وبدون أن تشعر كشفت عن جزء من معصمها لترى الساعة التي تغلفه وتنظر فيها، كأنما لتتأكد أن الليل فعلًا قد انتصف وهي ما تزال في جلستها تلك، التي تجلسها منذ ما يقرب من الأربع ساعات، والتي ظلت العيادة خلالها ما بين لفظ وبلع للسيدات القادمات للكشف أو للاستشارة، حتى أصبحت خالية إلا منها ومن الممرضة الجالسة خلف مكتبها، وهي تعبث ببعض الأوراق وتتثاءب في ملل بين لحظة وأخرى، ومن سيدتين تجلسان بجوار بعضهما البعض على الكرسيين المقابلين لها، وهما تتحدثان سويًا بصوت خفيض لا تكاد تتبينه ، ولكي تبعد عن نفسها الشعور بالملل الذي أصبح يسيطر عليها أخذت تنظر – ربما للمرة العشرين أو أكثر – إلى الصور المعلقة في أرجاء الغرفة للعديد من الأطفال من مختلف الأشكال والألوان، وتنقل بصرها بين هذه الطفلة وتلك وبين هذا الرضيع وذلك وقد ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة البائسة في انتظار أن ينهي زوجها الكشف الذي معه، ثم ينظر في أمر هاتين السيدتين اللتين أوشك صبرهما على النفاذ، ثم يبت بعد ذلك في أمر ذهابه معها إلى والدتها – التي لابد أنها قد استغرقت في النوم منذ ساعتين على الأقل – تلك الزيارة التي بينها وبين زوجها عداء لا ينتهي خاصة وأن هذه ربما تكون المرة العاشرة أو الحادية عشر التي تعد فيها والدتها بزيارتها مع زوجها، ثم لا تتمكن من ذلك بسبب تلك العيادة التي لا تنتهي مواعيدها أبدًا.

ولم تعرف لماذا طاف بذهنها نفس الهاجس الذي يراودها كل مرة، والذي غالبًا

ما يتحقق عندما تريد أن تخرج مع زوجها فيرفض بأدب ويتعلل – كالعادة – بإرهاقه من العمل الذي لا ينتهي أبدًا، ثم ينتهي الأمر – كالعادة أيضًا- بالعودة إلى المنزل، ثم يعطي كل منهما ظهره للأخر وينام، بعد مشادة كلامية مستفيضة عن عمله الذي لا ينتهي، والذي أصبح الشاغل الأول – بل الأوحد – له وعن عدم تقديرها لما يقوم به من جهد يستحق الإطراء والتقدير في سبيل تحقيق المستقبل السعيد – الذي يبدو أنه لن يتحقق أبدًا – الذي يحلم به لهما ولأولادهما – عصام وحنان – ثم يأتي الصباح ليضع حدًا للمشكلة باعتذار وكلمة حب ولا مانع من هدية بسيطة... وتستمر الحياة ، وما لبس هذا الهاجس أن فارقها ليحل محله هاجس آخر، وهو أن يقبل زوجها الدعوة ويذهب معها إلى حيث تريد وأثناء جلوسهما مع مضيفهما يرن هاتفه المحمول فيرد ببعض الكلمات البسيطة، ثم تنتهي المكالمة بالجملة المعتادة : -طيب أنا جاي حالًا- ... ثم يلتفت لها ولمن معها وهو يكمل جملته : -أنا آسف جدًا يا جماعة أنا مضطر أستأذن- ، ثم يسحب نفسه بهدوء أو يسحبها معه في ذوق مشيعًا من الجالسين بالدعوات والأمنيات، ومنها بالغضب والغيظ، ثم يدسها في سيارته ويمضي بها – بدون أن يشعر بما يعتريها من وجوم – إلى منزله حيث تنزل هي ويكمل هو طريقه إلى حيث يريد.

لقد أصبحت هذه الحياة غير محتملة، بعدما أصبحت في ذيل قائمة أولوياته فيأتي قبلها المرضى والمستشفى والعيادة والسيارة ... وكل شيء وأي شيء ، ولعل ما جال بذهنها قد أشعل النار في قلبها مما أكسب وجهها تعبيرًا رهيبًا امتزجت فيه مشاعر الحقد والغيظ والغضب، وجعلها تضم قبضتي يدها في حنق، وهي تقسم بينها وبين نفسها أن هذه المرة هي آخر مرات ذلك المسلسل الممل، ولابد لها أن تتخذ موقفًا مغايرًا هذه المرة، وسوف تذهب حيث تريد حتى ولو كلفها ذلك التضحية بكل كلام الحب والاعتذارات الجميلة وبكل هدايا الصلح، المهم أن رأيها يجب أن يكون محل تنفيذ بعد أن أصبح من غير الممكن – بل ومن المستحيل – الاستمرار على هذا الوضع مع هذا الزوج الذي لا يراعي لها أي مشاعر أو أحاسيس، ولا يراعي لأقاربها ومعارفها أي معروف أو واجب، لدرجة

أن يطرحهم كليةً خارج نشاطاته واهتماماته، بالرغم من كل ما يبدونه نحوه من احترام وتقدير ومحبة، أفاقت من هواجسها ووساوسها على صوت الممرضة، وهي تودع الدكتور وتترك العيادة تاركه له مهمة غلق الباب ... ونظرت إلى باب الغرفة فرأت زوجها وهو يستكمل لبس جاكت البدلة – التي أحضرتها له بمناسبة عيد ميلاده – وبعد أن أغلق باب الغرفة خلفه نظر فرآها أمامه . .. وكأنه كان قد نسى هذه الزيارة التي كان لابد أن يصحبها فيها إلى والدتها، ليعتذر عن سوء تصرفه آخر زيارة كان عندها فيها، حينما ترك البيت بدون أن ينتظر فراغها من الصلاة ليلحق بعمل طارئ .. وما لبث أن رآها حتى خبط بكفه على جبينه وهو يقول في ابتسامة وأسف

- -أخ .. والله نسيت خالص يا حبيبتي-.

ويبدو أن هذه الكلمات كانت بمثابة زر التشغيل لمدفع سريع الطلقات، ظل يمطره بوابل من الصرخات واللعنات والأسف على هذه الحياة التي أصبحت أحقر شيء فيها، والتي أضحت لا تحتمل، والتي لابد أن تتغير الآن أو تنتهي الآن .. وعلا صوتها فعلا صوته وازداد توترهما وهما يتبادلان الشتائم والسباب، لدرجة جمعت عليهما بعضًا من سكان العمارة التي تقع بها العيادة، وكلما حاول البعض التدخل لتهدئة الوضع ازداد الموقف اشتعالًا.

وكان هذا أول شجار يخرج عن نطاق منزلهما، وكان حقًا شجارًا عنيفًا، أمطرت فيه اللعنات وتعالت فيه الأصوات بالسباب والشتائم، لكن كان لابد للأمر أن ينتهي على نحو ما واختار الزوج أن ينتهي هذا الأمر من ناحيته فشدها في يده ونزل من العيادة بعد أن اعتذر لمن كان فيها، ونزل إلى سيارته وركبت بجواره وهي تنتحب في صمت ويعلو صدرها بين لحظة وأخرى، وحينما عاد إلى المنزل أعطى كل منهما ظهره للأخر ... ونام.

ويمكنك أن تقرأ القصة من جديد لتعرف ماذا حدث بعد ذلك.

اللبانة

حينما بصق عمرو هذه اللبانة من شرفة مسكنه – الذي يقع في الدور الرابع من إحدى العمارات – لم يعرها أي التفات ولم يضع هذا الأمر في باله مطلقًا فهو – بكل بساطة – تذكر أنه عندما اشترى الصحيفة اليومية التي يقرأها والده، المحال إلى المعاش، كان لا يوجد عند البائع فكة فأعطاه إياها عوضًا عن النقود، وعندما انتهى من عمله وذهب إلى منزله وأعطى الصحيفة لوالده وتناول طعام غدائه أراد أن يتسلى قليلًا بالوقوف في الشرفة، كما هي عادته في كل يوم، وقد أراد أن تكتمل تسليته بمضغ تلك اللبانة علها تقضي على رائحة البصل التي لوثت فمه أثناء تناول الغداء ... ولكن الذي حدث بعد ذلك لهو حقًا أمر من العجب العجاب وكان لهذه اللبانة شأن غريب وقصة لا تصدق، حيث أنه ما كاد يبصقها من فمه وتتهاوى في طريقها إلى الشارع حتى تلقاها قميص الحاج خليل الذي يسكن مع أسرته في الدور الثاني من ذات العمارة التي يسكن بها عمرو، ذلك القميص الذي كان منشور ضمن مجموعة أخرى من الملابس على أحبال الغسيل الملحقة بالشرفة، وقد ظلت اللبانة في مكانها – على جيب قميص الحاج خليل – حتى قامت الحاجة أم ميمي – زوجة الحاج خليل – بلم الغسيل حيث توارت اللبانة عن عينيها فلم تلاحظها حينما قامت بحمل القميص ووضعه مع بقية الغسيل داخل السلة البلاستيكية انتظارًا للقيام بكيه ووضعه في خزانة ملابس زوجها، ولكن الذي لاحظ هذه اللبانة هو ميمي ابن ، والذي اعتاد على أن يستعير بعضًا من ملابس والده حينما يرى – وكثيرًا ما كان يرى – أن خزانة ملابسه خاوية أو أن ملابسه كلها في حاجة إلى الغسيل !!!

وعندما استخلص ميمي القميص من بين بقية الملابس وهم بكيه ليلبسه

اصطدمت عيناه بهذه اللبانة التي علقت بالجيب، وهذا ما يعني أنها سوف تكون واضحة وضوح الشمس لخطيبته عندما تشاهده ولحماته حينما تقع عليه عيونهما، ولذلك فقد وجد أن عليه الاختيار بين أمرين أولهما أن يترك هذا القميص، ويستعير قميصًا غيره، وهذا الأمر تواجهه مشكلة أن هذا القميص يعجب خطيبته – التي لا تعرف أنه ملك لوالده – وهي تحب أن تراه به كما إنه متفق معها على أن يرتديه هذه الليلة، وهما ذاهبان إلى حفل زفاف إحدى قريباتها، وثانيهما أن يعمل جاهدًا على تنظيف هذا القميص مما علق به .. ولحسن الحظ فإن هذا الحل كان أسهل وأبسط في تنفيذه حيث ما كادت المياه الساخنة تلامس جيب القميص حتى خرجت اللبانة منه ولم يعد لها أي أثر، ولأنه كان في عجلة من أمره للذهاب إلى خطيبته فقد ترك اللبانة على طرف المطبخ حيث كان يقوم بتنظيف القميص، وذهب إلى حال سبيله ... وبالطبع فإن اللبانة لن تبقى على المطبخ إلى الأبد، حيث شاهدتها الحاجة أم ميمي وهي تجهز طعام العشاء فأخذتها وهي تعتقد أنها خاصة بابنتها سلوى وألقت بها في كيس القمامة.

وفي فجر اليوم التالي أخذ الحاج خليل كيس القمامة وهو ذاهب إلى الصلاة ليلقي به في الخرابة التي تقع خلف مسكنهم، وكعادته فقد وضع الكيس بجوار الخرابة دون أن يقترب منها خشية أن يراه كلب أو فأر فيحدث له منه سوء، وما أن وضع الحاج خليل كيس القمامة وسار إلى المسجد حتى اجتمعت على الكيس مجموعة من القطط اجتذبتها رائحة السمك التي كانت تعبئ الكيس، وبالطبع فإن عبث القطط بمحتويات الكيس قد بعثر كل ما به على الأرض، وكان من ضمن الأشياء التي بعثرت تلك اللبانة التي أبت أن تنتهي قصتها عند هذا الحد فعلقت في ذيل قطة من القطط المجتمعة حول الكيس، ولم تدر هذه القطة بما علق بذيلها فأنهت وجبتها الشهية وذهبت لتنعم ببشائر الصباح وهي نائمة على الرصيف المقابل للخرابة التي تسكنها مع رفيقاتها من القطط، ولكن هذه القطة لم تتوقع وهي ذاهبة للنوم على هذا الرصيف ألا تراها أماني – أخت عمرو – وهي ذاهبة إلى المدرسة فتطأ ذيلها بحذائها مما

أدى إلى انزعاجها وفرارها بعد أن تركت اللبانة عالقة بحذاء أماني لتستكمل معه مشوارها إلى المدرسة، وتقضي معها يومها الدراسي الحافل بالمرح والجد واللعب، ثم تعود معها إلى منزلها وتدخل من باب الشقة التي دخلتها مع شقيقها من قبل.

يبدو أن اللبانة قد ملت اصطحاب أماني لها طوال تلك المدة فتحينت الفرصة وما لبثت أماني أن داست على السجادة الموجودة بالصالة حتى تركتها والتصقت بالسجادة، وظلت في جلستها آمنة مطمئنة لا تطأها قدم ولا تنظرها عين والكل لاه عنها إلى أن دق جرس الباب فذهبت الحاجة أم عمرو لفتحه فدخل عمرو وبيده صحيفة والده وبعد السلام والتحية وبعد أن أعطى والده الصحيفة وأراد أن يدخل إلى حجرته ليغير ملابسه استوقفته تلك اللبانة – التي يبدو أنها اشتاقت إليه وأرادت أن يصطحبها معه مرة أخرى – فعلقت ببصره مما جعله يلتقطها بيده وهو يسأل والدته عنها فتخبره أنها ربما كانت عالقة بحذاء شقيقته، وأخذتها منه وألقت بها في سلة القمامة، في حين دخل هو حجرته وبدل ملابسه وتناول الغداء مع أسرته، ثم هم بالخروج إلى الشرفة كما هي عادته في كل يوم وأخذ معه اللبانة التي أعطاها له بائع الجرائد عوضًا عن النقود .....وهات القصة من أول.

صورة في المرآة

بالرغم من أن فترة الخطوبة لم تتجاوز الأربعة أشهر إلا أنها كانت فترة ملتهبة، اشتعلت فيها العواطف وتأججت فيها الأحاسيس، وكان كل منهما لا يتصور أن يعيش يومًا من حياته بدون الآخر، ولذلك ما أن اقترح الأهل عليهما إتمام الزواج سريعًا حتى بادر كل منهما في تجهيز نفسه للاستعداد لهذه الحياة التي بلا شك سوف تكون أفضل حياة يمكن لأي منهما أن يحياها .... وبالفعل اكتملت فصول السعادة، وتوجت بحفل زفاف بسيط حمل بين جنباته أقارب أحمد ومنال، وبعض الأصدقاء والمقربين، وتم الحفل على خير وجه بمباركة الجميع وبسرور كل من حضره، وكانت هذه هي آخر مراحل السعادة في حياة أحمد فلقد اكتشف – ويا هول ما اكتشفه – بعد أسبوعين فقط من زواجه بأن زوجته المصون لا تهوى شيئًا في حياتها قدر هوايتها للنكد والخناق، وأنها تتفنن في ابتكار الطرق والأساليب التي تنمي بها هذه الموهبة.

ولأن أحمد ليس من هواة التغيير كما أنه – لا أعرف إن كان لسوء أو لحسن حظه – يكره الخيانة أشد الكراهية، فقد أجبر نفسه على الاستمرار في هذا الزواج، والإبقاء على هذا الوضع غير الطبيعي وعلى رأي المثل (أهي عيشة والسلام).

إلا أن هذه -العيشة- التي أجبر نفسه على قبولها لم تلق الرضا عند زوجته بل ظلت تتخير من الوسائل ما يزيد من ضيقه بالحياة والاختناق منها، فتارة تقيم الدنيا ولا تقعدها لأن المال الذي يعطيها إياه لا يكفيها، وإذا قام بسد هذه الفجوة – غير الحقيقية – أدت منال نفس الدور لأن دولاب ملابسها ينقصه فستان أو تايير أو حذاء أو ما شابه -ويا ويله وسواد ليله- لو تعلل في يوم من

الأيام بعدم وجود ما يكفي من المال لشراء ما تطلبه فساعتها يجد زوجته وقد تلبسها عفريت لا يعرف للحق طريق، ألم يعرف أن زوج صفاء قد اشترى لها سيارة، وزوج هناء قد أحضر لها طيارة، وزوج عبير قد أحضر لها صاروخ ..... ولأن منال كانت تتفنن – كما قلت سلفًا – في ابتكار وسائل النكد والخناق فلم تكن معاركها الطاحنة لتقف عند ذلك الحد، كان لابد أن يكون هناك سبب آخر لافتعال المعارك والمشكلات، وليكن السبب مثلًا تلك الزيارات اليومية التي يقوم بها أحمد لوالدته – بحكم وحدتها بعد وفاة أبيه وكونه الابن الوحيد- والتي لابد أن تقابلها بزياراتها اليومية لأهلها، هذا بالإضافة إلى ما تبتكره من مشاكل من وقت لآخر حول أسلوبه في الطعام، وطريقته في النوم والكيفية التي يتحدث بها مع الأخرين، وهو ما أصبحت معه الحياة بينهما غير ممكنة بالمرة، وما أفقده أعصابه واتزانه مرات ومرات هم خلالها بأن يهدم هذا البيت ويقضي على هذه الحياة لولا بقية من إيمان منعته من ذلك.

ووسط هذا الخضم من الأحداث المؤسفة يأتي إليه النبأ الذي قضى على كل آلامه، والذي استبشر معه بانتهاء أزمته مع زوجته وهذا بعد أن علم بأن زوجته قد أصبحت حامل.

وكاد أن يطير من الفرح وهو يزف الخبر السعيد إلى والدته، التي انحصر دعاءها وابتهالاتها إلى الله في أن يبقيها على قيد الحياة إلى أن ترى حفيدها وتطمئن على ابنها.

وقد اعتقد أحمد أن هذا الأمر – بالطبع – سوف يحد من هذه التصرفات اللا معقولة أو الغير مقبولة من زوجته، ويجعلها تعدل عن هذه المضايقات التي لا تنتهي إلا أن الذي حدث – ويا للأسف – كان على عكس ما توقع تمامًا فهذا الحمل الذي كان مصدرًا لسعادة الجميع بدءً منه ومرورًا بوالدته وانتهاءً بجميع أفراد عائلتها كان لزوجته نبعًا جديدًا – فياضًا – للعكننة تنهل منه متى شاءت وكيف شاءت، ووجد نفسه يكابد ما يفوق احتماله وهو يواجه كل يوم حلقة جديدة من حلقات النكد التي تنتهي دائمًا بالخاتمة المعهودة (هو مش ابنك زى ما هو ابني ولا ايه...)

وأصابه الإحباط.
ولأول مرة – منذ أن تزوج – يخرج أسرار بيته خارجه ويفاتح بها صديق عمره إبراهيم الذي أشار عليه بما رآه صالحًا له، واستجاب له أحمد فبدأ بالتأخر في العودة إلى المنزل، وأضاف إلى قائمة هاتفه المحمول أسماء وأرقام وهمية لنساء لا يعرفهن كيدًا في زوجته وطمعًا في أن يحرك مشاعرها لتكف عما تفعله إلا أن الذي حدث أن زوجته قد تمادت فيما تفعله، وكل ما ابتكرته في تجديد ما تفعله هي أنها كانت تمسك بهاتفه فتمسح هذه الأرقام بدون أن تنطق بكلمة، وبدون أن تظهر أي استياء ثم تستمر في أداء دورها الذي تهواه وتجيده أشد الإجادة، وقد قابل أحمد ذلك الأمر بأن ازداد هو الآخر فيما يقوم به من أعمال تساعد في إشعال جذوة الغيرة بداخلها – أو حتى في إيجاد تلك الجذوة – فأوعز إلى صديقه بأن يبعث له برسائل غرامية على هاتفه المحمول من رقم خاص قام بشراءه وتحولت هذه الرسائل بعد ذلك إلى رسائل مثيرة غالبًا- كما هو متفق عليه – ما تكون أثناء وجود أحمد في دورة المياه أو نزوله إلى الشارع، وذلك حتى يتثنى لزوجته قراءتها حتى يشعرها بدنو موعد هروبه منها إلى غيرها.
وبالرغم من كل ذلك ظلت زوجته على حالها، بل أنها قد ازدادت شططًا في نكدها ومضايقاتها وساء الوضع عما كان عليه قبل ذلك، وكان كل ما قام به من عمل هو أن أضاف إلى الطين بعض الماء التي – ويا لغرابة الأمر – فهمتها زوجته على النحو الذي أراده مما صعد الأمور بينهما على النحو الذي أنذر بدنو الكارثة.
وكان لابد لهذا الأمر أن ينتهي أيًا ما كانت الطريقة التي ينتهي بها ولكن المهم هو أن ينتهي ... وبالفعل فقد انتهى الأمر ولكن على نحو غير متوقع فما أن دخل أحمد إلى البيت في يوم من الأيام بعد أن تعدت الساعة الواحدة صباحًا - وكانت زوجته – كعادتها- جالسة أمام التلفزيون فابتسمت في وجهه وقالت :
- -شوف يا زوجي العزيز .. روح زي ما أنت عايز وعك زي ما أنت عايز ... هتلف تلف وترجع زي الكلب هنا تاني-
ثم أدارت رأسها لتتابع ما كانت تشاهده في التلفزيون.

وشعر أحمد بالدم يغلي في عروقه ويكاد أن يفجر رأسه، ولم يتمالك نفسه وقذفها بالفاز الكبير المفضل عندها وهو يقول في غضب : -أنا اللي كلب يا بنت الكلب-
ثم خرج من الشقة مرة أخرى وهو لا يلوي على شيء ...
عندما حكى أحمد هذه القصة للضابط النوبتجي الذي يحقق في واقعة إصابة زوجته وهو ينهي كلامه بعبارة : -أبقى ليا حق أضربها بأه ولا لأ ؟-
قال له الضابط : -طبعًا عندك حق .. لكن معلش أنا مضطر أبيتك عندي الليلة دي لحد ما تتعرض على وكيل النيابة الصبح-.
وقال أحمد وهو يستعد للانصراف رفقة الجندي الذي ينتظره
-ماشي يا سعادة الضابط بس ممكن أسأل حضرتك سؤال ؟-
قال الضابط وهو ينظر إلى الأرض في خجل : - -أتفضل يا سيدي-.
قال أحمد وهو يبتسم : -هي اللي على خد حضرتك دي دموع ولا أنا متهيألي- .
وبالطبع لم يستطع الضابط أن يجيب فقد كان يعتقد أنه يرى صورته في المرآة ... أو ربما يتمنى أن تكون هذه هي صورته في المرآة.

الفرح

كانت حقًا ليلة ليلاء، فبعد أن قضينا الساعات الطوال في فرح ومرح وانشراح خرج صديقنا العزيز من النادي إلى مثواه الدنيوي برفقة من قال إنه متيم بها، وأخذ يسرد الحكايات في حبه لها وما كاد يصل إلى السيارة التي سوف تقله إلى الشقة التي أنفق الوقت والمال في تجهيزها فوجئنا – وعلى حين غرة – بابنة خالته الجميلة الثرية تقترب من العروسين وتخطر خلفهما مباشرة وهي تبتسم فيما توهمنا أنه سرور وبهجة، وعندما فتح صديقنا باب السيارة ووضعت عروسه إحدى قدميها بداخلها وإذا بابنة خالته – وعلى حين غرة أيضًا – ترفع قدمها وتطأ بها – عن قصد بدا واضحًا للجميع – طرحة العروس التي كانت ما تزال مدلاة من رأسها إلى الأرض بجوار السيارة ... ولك أن تتخيل ما الذي حدث بعد ذلك، فما أن ارتفعت صرخة العروس في ألم ودهشة حتى التفتت إليها الوجوه وحدقت بها الأبصار، ونزل من كان يركب سيارة ورجع من كان على وشك الركوب واستدار من لم يكن ينظر إليها، وافترت بعض الشفاه عن سخرية من الموقف في حين طلت من أغلب العيون نظرات الدهشة والغضب، بينما وقفت الجانية مشدوهة – بعد أن تبين لها عاقبة فعلها – تحاول أن تداري عملها (الأسود) بالتمتمة بالألفاظ التي لا تغني ولا تسمن من جوع

- -أو.... أنا آسفة خالص .... والله ما كان قصدي .. غصب عني والله .....إلخ-

وأخذت شفتيها تكرر تلك الكلمات وتعيدها وتزيدها في حين نظر إليها الحضور في شذر تارة وينظرون إلى العريس الذي أبكمته المفاجأة تارة أخرى، وقد علت وجهه صفرة كصفرة الأموات وهو واقف مشدوه لا يدري ماذا يفعل ولا بأي شيء يتكلم، وتارة ثالثة ينظرون إلى العروس من خلف زجاج السيارة

التي استقرت بداخلها والتي أسفر الحادث عن بعثرة شعرها الذي أمضت عند الكوافير الساعات الطوال لتقويمه قبل الفرح، وقد تدلى من بعض خصلاته عدد من مشابك الشعر التي كانت تربطه بالطرحة التي قد تمزقت تمزيقًا لا يمكن إصلاحه، والتي كانت مؤجرة مع الفستان بمبلغ كبير – سوف يجبر العريس على تحمل أضعافه بالطبع بعد هذا الحادث- أضف إلى ذلك الألم الذي لحق بالعروس من جراء شد شعرها إلى الخلف على حين غفلة وبهذه القوة، أما آلامها النفسية فلا أدري حتى الآن المدى الذي وصلت إليه في شأنها، خاصة وقد ظلت طوال الفرح وربما قبل الفرح بأيام تكابد نظرات تلك الفتاة، وتحاول أن تبدو بصورة طبيعية وهادئة أمام الجميع، فتوزع الابتسامات هنا وهناك وتشير لهذا ولتلك، وتتحاشى في كل مرة أن تلتقي عيناها بعيني هذه القريبة لصاحبنا خصوصًا وقد علمت أن هذه الفتاة لا زالت تحب ابن خالتها، ولا زال قلبها منشغل بهواه وبالطبع فقد كان يعلم بهذا الأمر، ويعرف الجميع بما يدور برأس هذه الصبية ويعرف بشدة حبها لزميلنا وتعلقها به بالرغم من محاولة الكافة – قريبهم وبعيدهم – إقصاءها عما يدور بخلدها، وإبعادها عن هواه فلم تكن تلك المهمة سهلة ولا يسيرة، فهي من ناحية قريبته والقرابة في عائلة صديقنا هذا تعني أن كل بيت به أحد أفراد العائلة هو بيت لكل فرد فيها يدخله وقت أن يشاء ويجلس فيه كيفما يشاء طالما لم يتعد حدود الأدب ومقتضيات الذوق تجاه أهل البيت، وهي من ناحية أخرى على قدر واف من الجمال والفتنة بحيث تغري من يراها بحبها، وتوقع كل من يقترب منها في شباك هواها وبالتأكيد فإن هذا النوع من الفتيات من العسير أن تنأى به عمن أحب وأن تبعده عمن يعشق، ومن ناحية ثالثة فإنها على قدر من الثراء أحاطها به والدها الذي هيئته له إعارته إلى إحدى الدول العربية حقق فيها ربح واسع من عمله كمدرس هناك، ومكنها به من إتمام دراستها بالمدارس الأجنبية إلى أن أتمت تعليمها الثانوي وألتحقت بإحدى الكليات الخاصة التي ما زالت تدرس بها، فإذا أضفنا إلى ذلك الحياة البسيطة التي تحياها عائلة صديقي هذا والمرتب شبه المعقول الذي يتقاضاه من وظيفته لوجدنا أنه من الطبيعي

– بل ومن المنطقي جدًا – أن يقع زميلنا فريسة سهلة في حبائل هذه الفتاة وأن يهواها – حتى ولو لم تبادله ذلك الهوى ولم تقاسمه هذا الغرام – ولكن ماذا يمكن أن يقال وإن كل ما يتعلق بأمور الحب والزواج أمور لا دخل لنا فيها وتخضع جميعها للمقدر والمكتوب وليقول الناس في النهاية كلمتهم المشهورة - نصيب -.... ويا لها من كلمة !

المهم أن الجميع قد حاول بشتى الطرق وأد هذه العلاقة من جانب الفتاة، أو تدعيم أواصرها من جانب صديقنا إلا أن كل المجهودات التي بذلت في هذا الأمر أو ذاك قد باءت كلها بالفشل بدءً من محاولات والدي الفتاة وانتهاءً بمحاولات والدي الفتى إلى أن حدث ما قد حدث.

بعد أن وقف ورجع من رجع من سيارته وبعد أن استمر الجميع على دهشتهم وغضبهم وسخريتهم لبرهة من الزمن، كان لزامًا أن ينتهي ذلك الموقف بأي شكل من الأشكال وباعتبار أننا – أصدقاء العريس- كنا أقرب الناس للواقعة فقد كان علينا أن نحمل على عاتقنا مبادرة إنهاء الموقف والخلاص منه، ووجدت نفسي وكأنني كنت مقيدًا في الأرض بقيد حديدي قد انفك عن قدمي دفعة واحدة ملت على صديقي متجاوزًا قريبته – التي كانت العبرات قد بدأت تطل من عينيها تخنق صوتها – وقلت له بصوت المتسرع المتعجل : - يلا يا على يلا يا عريس خذ عروستك واتكل على الله-

ثم دفعته إلى السيارة فطاوعني بعد أن أفسحت عروسه له مكانًا بجانبها، وهي تكفكف دمعها واطئًا بجلسته تلك الطرحة التي كان بعضها ملقى في دواسة العربية والباقي مهلهل ومشدود إلى هذا البعض، وملقى بجوار ابنة خالته التي وقفت تبكي في صوت غير مسموع في حين قام صديق آخر بجمع الجزء المطروح أرضًا من طرحة الفرح وألقاه بداخل السيارة بدون أن يعبأ بالمكان الذي استقر عليه وأغلق باب السيارة وهو يقول بصوت عال يُسمع به الجميع

- -ما تسمعونا زغرودة يا جماعة-

وهنا فقط عادت لليلة بعض حيويتها وبهجتها، وانطلقت الزغاريد من بين الشفاه وانطلقت معها أبواق السيارات، وأصوات مسجلاتها وهي تغادر مكان

الواقعة بينما جذب زوج خالة صديقنا ابنته من ذراعها في عنف إلى سيارته التي كانت تقف على مقربة منا، ورمى بها فيها وهو يتمتم بكلمات كثيرة لم أع منها سوى كلمتين هما (... لما نروح...) وانطلق باقي الجمع كل إلى حال سبيله وهم يتكلمون ويتحدثون يتصايحون ويتضاحكون فيما حدث وودعت أنا بدوري باقي الأصدقاء وأوقفت إحدى سيارات الأجرة التي أقلتني إلى منزلي فارتميت على السرير – كما أنا بملابسي- وأنا أتذكر هذا اليوم الشاق وما مر فيه من أحداث حتى نمت.

الهـــــاربة

-المحطة لو سمحت-

قالتها وهي تركب السيارة الأجرة التي وقفت أمامها، والتي أحست أنها جاءت لتنقذها من دنيا الشقاء التي كانت تعيش فيها في منزل زوج الأم القاسي وبصحبة الأم المغلوبة على أمرها، وتنقلها إلى دنيا المرح والبعد عن الهموم وكل ما يعكر صفو حياتها ... كانت ترتدي النظارة السوداء التي تواري عينيها عن الأنظار، وتريها ما حولها كله وكأنه قد أضحى في سواد غير مريح، وتخيلت هذا الأمل الذي تعد نفسها للذهاب إليه لو خانها ولم تقبلها تلك الحياة الجديدة التي اعتقدت في قرارة نفسها أنها المخلصة لها من كل عذاب من عذابات الحياة، كلمات زوج أمها الجارحة لا تزال ترن في أذنيها مثل الرعد وآلام الصداع تدق رأسها بلا رحمة ولا هوادة مما كان يفقدها صوابها، وهي تسترجع الذكريات الأليمة التي مرت بها منذ وفاة والدها، والذي ضاعت ذكراه من مخيلتها إلا من بعض الصور القديمة الباهتة، تحكي زواجه بوالدتها ثم وهو يحتضنها بعد ميلادها بعام، ثم صورة أخرى باهتة عن نساء يتشحن بالسواد ويحطن بوالدتها وهي تولول وتصرخ على هذا الذي ذهب وترك لها ابنة لم تبلغ عامها العاشر بعد، وكلمات تعزية ومواساة استقبلتها في وجود أعمامها وأخوالها الذين لم تر أي منهم بعد زواج أمها من هذا الرجل الجديد الذي اعتبرته من أوضع الرجال الذين قابلتهم في حياتها، فبعد أن كانت معاملته لها في البداية مشيدة على أنها ابنته التي لم تكن من صلبه والتي – كما كان يقول – هي العوض الإلهي الذي وهبه الله إياه عن عدم رزقه بولد من زوجته الأولى فهي الفرحة التي ملأت عليه حياته سرورًا وبهجة، وهي النعيم الذي فضله الله به على كثير ممن

خلق، وكيف تحول هذا القلب العطوف بعد كل هذا الحب وهذا الحنان الذي أحاطها به إلى قلب شاذ قاس لا هم له إلا نثر كلمات الكراهية وزيادة ساعات الألم في حياة تلك المخلوقة البائسة، وإحاطتها بشتى صنوف وألوان الشقاء.
تذكرته وهو يقف أمامها يعنفها ويوبخها وتنال كلماته الهوجاء التي لا تحمل أي قدر من الرحمة والإنسانية من كرامتها وآدميتها، وهو يصرخ في صوت مرتفع يكاد يصم الآذان ويصهر الرؤوس لا تجلسي مع هذه الفتاة ... ارتدي ملابس غير هذه .. هذا الفستان لا يصلح إلا لسلة القاذورات وهذا يجعلك كالعاهرات ... لا تمشي بهذه الطريقة .. لا تنطقي هذه الكلمات مرة أخرى .. . وكالعادة وفي كل مرة ينتهي الصياح باللكمات أو الركلات أو الصفعات أو ما شابه ذلك أو كل ذلك.
كانت السيارة تطوي الطريق طيًا من حولها وتحين من السائق نظرة إلى المرآة بين لحظة وأخرى فيراها قد عجزت النظارة عن حجب عبراتها فترقرقت على خديها في حين كانت أسنانها العليا تجز على شفتها السفلى فتزيد من إظهار ما تكابده من تعاسة وألم، وبالرغم من رغبة ذلك السائق الكهل في سؤالها والتخفيف عنها إلا أنه قد آثر السكوت خشية أن يتسبب سؤاله في إحراجه أو إحراجها أو إحراجهما معًا، فترك النظر إليها والتفت إلى الإشارة الحمراء التي لم تلبث أن تحولت خضراء فمضى في طريقه تاركًا إياها تسترجع صفعات زوج أمها القاسية على وجهها، وبصمات أصابعه فوق خديها والعلامات التي قد تركها الحزام فوق نهديها والعديد و العديد من المناطق التي تشوهت في جسدها، والتي لم تستطع أن تكمل تخيلها فأخفت وجهها في المنديل الذي أخرجته من حقيبتها ذات اللون الباهت واجهشت بالبكاء في صوت خفيض، بذلت كل جهدها لتجعله غير مسموع، وهي تستعيد بذاكرتها صورة والدتها التي لم تقف مرة للدفاع عنها بل تركتها هدفا سهلًا لضربات زوجها ثم – وبعد أن يستكفي من هذا الضرب – تجئ إلى حجرتها وهي تهمس بكلمات واهية لا طائل منها إلا الوصول إلى جملتها الأخيرة التي لم تتغير -ما هو كله لمصلحتك يا بنتي -....- آه -... أي مصلحة تلك التي كانت تقصدها هذه السيدة، أي مصلحة تلك التي

تجنيها هذه الفتاة من هذه الصفعات، وهذه الآثار الموجعة أي مصلحة لذلك الجسد الذي أصبح سجين الدمع والأسى كل يوم لا يختفي منه أثر إلا ليظهر أثرًا آخر مكانه، والذي اكتست ملامحه بلون الحمرة من شدة الضرب.

أفاقت من ذكرياتها على صوت السائق الكهل وهو يقول - حمد لله على السلامة يا بنتي -.. ولم تدر أي سلامة يقصد ذلك الرجل، وكل ما يحيط بها لا يوحي إلا بالندامة والحسرة ولكنها في النهاية استطاعت أن تطوي بفكرها تلك الكلمات، وأن تضع قدميها على الأرض خارج السيارة بعد أن وضعت في يد السائق بضع من الورقات المالية التي لم تنظر لقيمتها في حين نظر هو لها ولم يسألها عنها، ثم دلفت وسط زحام البشر بالمحطة يقذفها كتف هذا لتردها ذراع هذه، وهي بين هذا وذاك لا تدري مما حولها شيئًا إلى أن وجدت نفسها أمام شباك التذاكر فابتاعت التذكرة التي تبغيها، ثم توقفت على الرصيف وعيناها باهتتان وذهنها مشتت في موضوعات شتى كالسائر في الصحراء بلا ماء ولا زاد وكل أمنيته في شجرة وارفة الظلال وعين تنبع بالماء فيستظل ويرتوي ثم يحلها بعد ذلك من بيده الحلول والإجابات.

وقف القطار أمامها يدعوها للركوب، ولم تكن محتاجة لتلك الدعوى فاندفعت داخلة ضمن من اندفع واتخذت لنفسها مقعدًا كان من حسن حظها أنه يجاور النافذة، وما أن جلست حتى جاء الكمسري بردائه الأزرق فنظر إلى تذكرتها، ثم مزق جزء منها ثم أعطاها إياها مرة أخرى وتركها لتعاود استرجاع شريط الذكريات.

لم تكن تعرف البلد التي هي في طريقها إليه سوى قدر ضئيل جدًا من المعلومات لا يكاد أن يتجاوز ورقة داخل حقيبتها تحوى عنوان ورقم هاتف لمن تماثلها في السن، كانت تسكن في الشقة المجاورة لشقتهم مع أهلها وانتقلت للعيش في هذه البلد بعد أن ضاقت بهم الحياة في المدينة المزدحمة، وزادت عليهم نفقات العيش ... لقد كانت تشعر نحو هذه الفتاة بحب شديد لم تدر سببًا له فأرجعته إلى ما تنعم به هذه الصديقة من حرية في الحياة، وحرية في التعبير عن مرحها، ومصاحبة من تهوى ولبس ما تهوى والذهاب إلى أي مكان تريد .

.. تذكر يومًا أنها كانت في رفقتها – بالطبع بدون علم زوج أمها – وذهبا إلى شقة إحدى صديقاتها، وكان بها عدد كثير من الأولاد والبنات يمرحون ويلعبون بلا اكتراث لأحد، وبدون أن يأبهوا لما يحيط بهم من أشخاص، فيدخنون تارة ويشربون بعض المسكرات تارة أخرى، ثم يأخذ بعضهم بعضًا إلى بعض حجرات المنزل فيتوارون من خلف أبوابها، ثم يخرجون بعد وقت قصير وهم في قمة النشوة والسرور ...

كانت تعلم أن كل هذه الأفعال لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال سوى أخطاء شباب وطيش مراهقين، ولم تكن ساعتها تتخيل أن تقع في مثله أبدًا، وكل ما كانت ترنو إليه وقتئذ هو الفضول لرؤية تلك الأحداث وإرضاء رغبة صديقتها في الذهاب معها إلى ذلك المكان، الذي لم تر صديقتها منذ أن دخلت إليه إلا وهي خارجة منه برفقتها متأبطة ذراعيها حتى لا تقع على الأرض مما تعانيه من سكر ونشوة... تذكرت هذه الأحداث وتذكرت ذلك الفرح وتلك النشوة وهي تنظر ما خلف الزجاج المجاور لها متيقنة في قرارة نفسها أنها لا تستبعد أن تقوم بمثل تلك الأعمال الآن لو عرضت عليها خاصة وقد هانت الدنيا أمام عينيها لدرجة لا تتصور بلوغها من قبل.

تركت باب الذكريات مفتوحًا تتدفق منه ملايين الكلمات والأفكار، منها ما هو مؤلم ومنها ما هو سعيد، إلى أن أغلقته همهمات من حولها فعلمت أنها قد وصلت إلى المحطة المنشودة، واقتربت من الموعد المنتظر الذي لا تعلم أينتظرها من وراءه فرح وسعادة أم ستظل حياتها معه في شقاء وألم ولكن في النهاية – وكما حدث عند ركوبها القطار – فقد اندفعت ضمن من اندفع حتى وجدت نفسها نازلة منه، ثم خارجة من المحطة بأجمعها وكان من الطبيعي أن تبحث عينيها عمن في مثل سنها لتسألها عن المكان الذي انتوت الذهاب إليه، وعندما أخرجت الورقة من حقيبتها وواجهت إحدى الفتيات بما جاء فيها وسألتها إن كانت تعرف هذا العنوان أم لا، نظرت إليها تلك الفتاة نظرة لم تتبين كنهها ولم تفكر في تبينه ولكن المهم أنها أخبرتها عن العنوان والذي – لا تدري أذلك من سوء حظها أم من حسنه – كان قريبًا منها.

وعندما وصلت إلى العنوان المطلوب كانت تنتظرها واحدة من كبرى المفاجآت التي لقيتها في حياتها فالشارع المكتوب في الورقة هو نفس الشارع الذي وطأته ورقم المنزل هو نفس الرقم المكتوب أمامها والمنزل مكون من طابقين، الأول يحوي حانوتين مغلقين والثاني هو مسكن صديقتها الذي أخبرتها به ولكن ... ولكن ما السبب وراء وقوف سيارة الشرطة أمام ذلك المنزل وهذين الجنديين الواقفين بجوارها ؟! وما سبب تجمع كل هؤلاء الناس حول المنزل والسيارة ؟؟! وما كل هذه العيون التي تكاد أن تخرج من محاجرها وتثقب الجدران لترى ما تخفيه ؟! ... دارت كل هذه الأسئلة في مخيلتها وقبل أن ينطلق بها لسانها جاءها الجواب سريعًا مفزعًا على نحو لم يخطر ببالها أبدًا، ولم تتوقعه على الإطلاق، وتمثل ذلك الجواب في جارتها القديمة خارجة إلى أرض الشارع بجسد لا تغطيه إلا ملاءة من ملاءات الأسرة بشعر غير مرتب وبأقدام حافية، وتخرج من حافة تلك الملاءة يدها البيضاء ملتف حولها سوار من حديد مسلسلة به مع شاب في مثل سنها، ومثل حالتها وحولهما عدد من الشباب والبنات في مثل سنهما أو أكبر أو أصغر بقليل، كل منهم عليه ما عليهما وحالته هي نفسها حالتهما، يحيط بهذا الجمع عدد من جنود الشرطة مسلحين بمسدسات وورائهم اثنين من الضباط ينظرون إلى الجميع في حبور وبهجة.

والتقت عيون الفتاتين هذه في حسرة، وهذه في دهشة، وهي صاعدة لتندس ضمن من اندسوا في صندوق سيارة الشرطة وتلك وهي هاوية على الأرض في حالة إغماء.

هذا الكتاب

ما الذي يفيده من إرسال رسالة لها كل صباح .. لماذا لا يتقدم للتعرف عليها مباشرة ويعطيها الفرصة للتعرف عليه .. فربما يروقها بل وربما تبادله حبه بحب .. لماذا لا يستطيع أن يمضي في الأمر كما يمضي غيره .. إنها لا تنكر المشاعر الجميلة التي تعايشها وهي تقرأ رسائله التي تشعرها بنسيم صباحها، و كأنها همسات حانية تربت على قلبها وتهدهد روحها، ولكن هذا الشعور لا يكفي فهي تريد ما هو أكثر من ذلك .. تريد أن تعرف من هو صاحب تلك الهمسات وماذا يقصد منها وهي تعتقد أن ذلك من حقها .

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجلش ..
أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك
تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
website : www.fasla.org
E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com
Facebook.Com/Fasla.Pub